أفاريز الشبابيك الوهمية
جادالله الجباعي

الطبعة الأولى
دمشق 2009

لوحة الغلاف للفنانة ضحى الخطيب

جادالله الجباعي

رواية

أفاريز الشبابيك الوهمية

إلى كم موت يحتاج المملوك حتى يدرك أن الثورة حرب تأكل مماليكها، وروح الدولة وأسوار المدينة ..
وأن ثورة الحياة هي تدرج الله في استكمال محاسن خلقه على سبعٍ طوالٍ، حتى يرتقي الجمال إلى كمال جماله، لأن الله في عرف كل المحبين جميل.

وتدرج البشر في التآنس بعد وحشة، والتجمع بعد عزلة،والتواضع على حق الحياة، وتحريم الدم في مطلق أحواله دون استثناء، لأن حق الله في الإنسان هو روحه الثاوية فيه، وعيشه معه، وخلافته له في الأرض، وأن قرابين الدم البشري على مذبح الرب أديان وثنية.

وأن ثياب النساء ليست من وحي الله ..

وأن وليمة التفاح ذاكرة بشرية.

إهداء

إلى الريح التي عانقت شباكي يوماً بعاطفة الشوق الأبدي إلى الحياة، وأراحت مفصله الوهمي من ركام الصدأ.

ونثرت طلع الحياة في يبس أفكاري المحنطة في حفيظة الذكريات، بعد أن طاول الموت شوق الطيور إلى المدى.

إلى الريح التي نزحت عن سماء وهمي غيم الحنين لوجه أمي، كي أعرف وجهك، وضباب الخوف عن وجهك وعن وجهي حتى يزهر فينا روح الله.

إلى كل الشبابيك المفتوحة على مدى الحكاية

إلى التي ما زلت أعاتبها، لماذا تركت الشباك مفتوحاً ...
وما زال النسيم مرسال الهوى.

الفصل الأول

المنزلق

أو

هذيان على باب العقد الرابع(1)

دخلتُ من الباب الشرقي شريداً، أحف السؤال عن مرتسم الكون المكثف في الأسماء، وأحف التيه الحائر على تعب قدميَ وعن جلد الطريق.

أكنسُ الشمس عن ضجر الطريق بظلي الباهت، وأقطع أربطة الوصل الشقية، بين نزق الوقت وبلادة المسافة.

وحيداً أبخر ظلي بظل التوت، وأفرش تعبي على بخار الذكريات وخيالات الوحدة.

وحده رذاذ الماء المنبعث من شلال النافورة مواجهة ينافح صبوتي في تحصيل المكان، ويكمل رسم منحنيات الإغراء في جسد البحيرة الأنثى، ويسربل الماء بالإغواء.

نافورة الماء ما زالت تتوضأ في بسملة الصبح، وترسل، مثلي، ثمار تعبها صلاة للريح، وتعرف تعبي.

جهادها يتوزع نثراً، تتلاشى في محفة الكون البليد وفقاعات الزبد الملون بالتزوير، ثم تغرق في ذاتها وتعود ماء.

كذلك تتلاشى رغبتي في متابعة المسير، ويطوي الحور المصلوب على عتبات القحط وأرصفة المواعيد نصف ظلي، ويحل عرى الطريق عن شغف حذائي.

ينزح خيالات التبني الوهمي لفلسفة المشّائين من هيولى الإسفلت المعتّق، وينثرها على بخار القطران المتفحم في زفر المدن المنزوعة التاريخ، والحبلى بالنكوص لعلّة البدء في سفر الخلق، وبحنين السماء للتعري من جلدها المبطن بملح البحر، وبشوق اليبس للانزلاق عن جسد اليبس والنكول عن عقد مسيار مزور.

لا الريح ملهمة المواويل ولا البحر باكورة الكلام، وحده الرمل يحف الروح بزيغ الأحلام، فيمتد السراب اشتباهاً يعزز ثقة المسير، كي يورق الدوح على خاصرة الكثيب وجفاف اللسان، وتتناسل الصفات أسماء، لئلا تسقط اللامين من اسم الله .

أطلقت آهتي وترنحت على جسد سبيتي المحروق بالحنين والشمس، وأطلقت عينيّ هدهدين يحرقان خيوط الشمس، ويستبيحان الظل وأسرار المكان.

جو المكان يشبه ذاته، ربما يشبه أماكن أخرى أعرفها أو لا أعرفها، لكنه يشبه ذاته أكثر.

بحيرة تتلوى كجسد امرأة تتقن فن الإغواء. ومتاهة تلتف على جسد الماء، بمساحة نبوءة منزوعة السلاح، وزمن حلم يمتد على شهقات خمس ليال مضاءة بالشهب والخوف في رأس جنين على منعطف الولادة.

كأنما هي أحجية اختبار للعشق الفيضي، فيحكم العاشق على مخاتلة وجده الزائف إن ارتاد كل المساحات الحلولية في أقواس الزوايا الوهمية ولم يعرف من أين ابتدأ.

ويحكم على بلادة ذاكرته، إن أكمل قوس الأحلام الأثيرية في دائرة الإشباع الغريزي حتى الدهشة الأولى، فألفها، وتآنس مع رفقة المنحنيات الرخية في تكور النزوات الحادة في زوايا القناعة الزائفة، وصار التكرار ترويحاً عن النفس المتعللة بموت الصبوة في الروح، أو بجفاف السماء.

جلست وحيداً ولست وحدي، في عطف القوس الثالث من حنو الحور المتبرئ من مواقعة خيمة، والنازف من زغب الوبر الهارب من شبق الريح الحمراء، في منعرجات السواقي وأفلاج البقاء.

أجاهد الصبح المتهدج على ثقل جفنيَّ التعبين من مغالبة النوم لخمس ظلمات مضت ثقيلة، بلزوجة وقت كثيفة كنسغ رؤيا، أرخت هيولتها على فقاعات الأرق المفقوءة بمهاميز الأفكار النارية في خيالات العزلة المبطنة بالعنف، وحرارة الهذيان

المتدفق في مدارات النفس، من ضغط الغرائز الممنوعة من الصرف، ومن ملوحة الدم المتخثر في عروق ذاكرة نضح النسيان ماء تشكلها وامتصته ثقوب الحلم السوداء إلى جحيم كثافتها.

ترنحت على قلق مقعدي الكسيح مغشياً باللون العدميٍّ لرطوبة الصبح، امتص رحيق الماء من مسامات الروح الشقية وأطفئ حرقة دمي، وظمأ الأحلام المهوّمة في صحراء الترحال العبثي بين الحقيقة والوهم، كهجرات الرمل.

أعيد تشكيل الصلصال التعب في كثيب جسدي المتهالك على قارعة الوجود الغافل عن وجودي، وعن خروجي من دوامة الهجرات البدوية، ودوال الدول القصية من ذاكرة الوجود، وعن سمت الفلسفة الوجودية، وجهات الريح المعروفة في تصنيف النزعات والنزاعات.

أسحب ظلي من فلسفة الأسفار الأولى، لئلا أتعثر بورق التوت اليابس على عورة جدي الأول، فأوقظ خطيئته من جرح الغريزة، أو تسكرني رائحة التفاح المسمومة في عرق أنيسته، فأتهم بالتجرؤ على حرمات الرب، و يُفتح سفر الخروج على سبيٍ لا رجعة منه، وأموت على باب عشتار وقربان القمح الذاوي بيدي، أطلب الصفح لبابل المسبية بالغزوات وبالدنس الثوري، كي لا يموت الفرات بعناق دجلة، ويبقى شط العرب حزينا.

وأنسل اسمي من نسل النبوءات المسفوحة في الأرض اليباب، لئلا تخونني الذاكرة المزروعة بالنسيان في حفظ الألقاب والأنساب وتصنيف الأعراق، فأبارك زواج سليمان من أخت أبيه، أو أنعت يوحنا بخلاسة المولد وأثير اللغط على عفة أمه، وأُسقط حقه في العرش عن زللٍ، فيحترق سفر الرؤيا .

وأرفع جلدي عن حواس اللمس، لئلا تختلط تفاصيل التخوم في حيرة المكان من ارتياح جسدي القتيل بالنزوات السريرية، فأستطيب شواء العُرق الأسود تحت خط النار، وأثير شهية الغرب للبخور وحرقة التوابل الجنسية في الجزر الهندية وأودية المسك.

وأوقظ اخناتون على طلب الفدية من موسى، لقاء تحرير السبايا، وإعادة كنوز المملكة المنهوبة.

أو يستفيق اليهود على امتداد التخم على نفط الخليج ولسان الرمل، والحق بعرش الخلافة.

وتستفيق روما على طلب مفاتيح القدس القديمة، وعرش بيلاطس البنطي، ومنجرة الصلبان، وعصا يوسف النجار وإكليل خطيبته ..

أو أنسى في لحظة، كل أسماء النسل الصالح على شجرة الأنبياء، فأحرم نصف البشريين أبناء الكون، من بطاقات

تعريفهم، فيحيون نكرات مجهولة الصفات، ويتراكم الغبار في دور العبادة.

أو يطالبني الذئب ببراءته من دم الأنبياء بلغزٍ مكتومٍ، وإلا ينهش لحمي، أو يحرم زوجة العزيز من اشتعال الرغبة في عروق خصوبتها، ويؤرّق ليل الحكيم، فيهجره الحلم، ويبقى سليل الأنبياء معصوباً بالسواد، يحل الألوهة بالجنوسة، والجنوسة في خيالات أشباح الأشياء المتحركة في غشاوة الحسر في عينيه، وحسرته.

وتموت بسبعٍ عجافٍ مصر، وبادية العرب الأقحاح، ويُختصر نصف القاموس المحيط، وثلثان من لسان العرب الفصحاء، إذا ماتت النوق السمان في صحراء عسيرٍ وضواحيها، وتوحش كعبة الرب من يبس المعلقات وسبع حليمات الذوق على نحو لسان العراق، وتتبعثر حروف الأبجدية عن حجر الرشيد ونعود للعواء في الصحراء إذا لم تُكتشف أبجدية أخرى في بلاد الشام.

وإلا ستبقى الجماهير الغفيرة تثبت حضورها، باستعراض الصفوف من دون صوت، في انتخاب المجالس المحلية وكراسي النيابة، لتُحيّ حكم الجماهير وصناديق الاقتراع.

لكزني من ناب عن ثقل الأرق السابق، على دبق جفنيَّ المحروقين بالشمس والعرق اللزج، فسحبت بعض أشلائي من حومة الموت الوهمي. وانداح خدر الحروف المصلوبة في عين

الخليل وعلة الأصوات على جفاف لساني. حركت يساري بإيماءة رفضٍ، وحمحمت بزفيرٍ معنونٍ كحصان عربة.

اختبرت وجودي من حرقة حموضة خفيفة في خواء أحشائي، أشعلتْ فتيل غريزة مألوفة، تشاركت مع دغدغة جناحي زائرتي النزقة لخياشيم أنفي النازف من نتح الضغط الزائد في عروق ذكرياتي.

كررت إيماءة الرفض باليمنى ثلاثاً ولم أجرؤ على اختبار الصوت، لئلا أعتاده وأنسى جرح كبريائي.

تململت .. شددت أوتار جسدي .. أعدت تشكيل تفاصيل المكان في حيرة حواسي الغارقة في خدر عتيق، كأني عليل بجرح قديم ألفته، فارتفعت عندي عتبة الإحساس بالألم. سمعت نشيج مئذنة بعيداً يشير لإحدى حواس النهار، ربما الظهر .. أو ربما العصر .. أو ما قبل المغيب .. لا أدري .. لكني تيقنت أن اللغة ما زالت موجودة وأن الصوت وجود.

وإني مازلت أحيا على قارعة الوجد الصوفي بجوار ربي في فردوس الفرح المفقود، أحافظ على حسن جيرتنا ومساحة الظل بيننا، أصون عليّته، ويكرّمني بحفظ النبوءات في نسل الرمل الممعن في الهجرات، ويديم اعتلالي.

ترنح مقعدي القلق تحتي، أحسست بثقل جسدي يتضاعف، رفعت رأسي صوب الشمس وملأت عينيَّ ببخار الكون و خيالات الدهشة، وشبكت يديَّ فوق جبيني خيمة.

وقفتُ وتمطيتُ، زفرتُ آهاً طويلة، اختبرت علة صوتي عن خبث، فأيقنت أن الصوت المبدد في الزفر المقصود لغة محبوسة في النوايا، وعنف مؤجل لمتاريس لم تأخذ بعد مكانها الملائم في سمت المواجهة.

انتصبت على خدر ساقيّ فزفر مقعدي الكسيح آهته الحبيسة، وارتاح الزغب المنسي في ذاكرة الحور من نهب النمل.

كثّفتُ غيمة وجودي قطرة، فانسحب ظلي الباهت بمقدار انحرافين عن سمت الشرود الأخير.

أفقت من طور ذهولي، أعدتُ تشكيل الممرات في عيني، تعلقتُ بأوتار حنجرتي، قرأتُ فاتحة الكتاب، وسبعة الأضداد، ويممتُ شطر الباب الشرقي .. فتنفست الخوف ...

(2)

يا الله لماذا هي ..؟

يا الله لماذا أنا ..؟ ولماذا أورق التوت ..؟

يا الله على أي قلق تستريح ..؟ وفي أي متاهة يسبح ظلك الشفيف..؟ ومن أي باب سيأتي فرسانك..؟ ليتوجوا الملوك على أكتافنا ونبقى حيارى ..!

الباب الشرقي قريب مني، ربما أقرب إليَّ من نفسي.

من الباب الشرقي دلفت هي أيضاً، و ببراعة الأنثى في امتطاء الأحذية القلقة، تجاوزت منزلق الممر المشبع بالرطوبة، وندى الأحاديث و وشوشة الماء.

من الباب الشرقي دخلت، واستباحت أرخبيل الوجود من حولي، وجزر نفسي المترامية في بحر التعب الفسيح وأشرعة الذكريات، كحملات الإسكندر.

تناهيد الأنوثة في جسدها المندفع كفرس سباق- تعرف في سر غرائزها أنها في حومة التحدي لتحصيل المكان في غمرة المنافسة أثارت شعور الرجولة فيَّ..

للحظة .. لمت نفسي.

"أنت تزني في السر".

تذكرت قول المخلص المحير ..

"من اشتهى زوجة غيره في السر فقد زنى" ..

ثم واسيتها.

ما الرجولة إذا لم تستتر بعبور الأنثى في امتداد الحواس والممرات الزلقة ، وإتقان الخديعة بنكران الاستثارة.

أنا أعرف رجولتي .. تثيرني المرأة مرتين .. تثيرني حين تدخل عالمي .. وتثيرني حين مغادرته أكثر.

أنا تمنيت جلد (آخيل) المدرع بالآلهة ضد النساء ،

فأهداني الله كعبه.

يا الله لماذا هي ..؟

يا الله لماذا .. لماذا ..؟

لماذا كلما اتكأ الياسمين على عبق امرأة تجدل رغبتها على رحيق الشمس، تتحسس نجمة صبح سحر أنوثتها، وتنسّل الكلمات فحيحاً وتصير الأسماء خطايا.

و كلما داعبت ريحٌ هفهاف الرمل المحروق على شبق رغبتها .. يصير جسداً.

وتصير الشمس أنثى، و يشد البدر أوتار خصوبتها بالظهور والتخفي.

وتدمى عند أول شهقة ليل، وتذوب في ماء شهوتها ويلفها الحياء.

ونحن نخاف من مجهول خطيئتنا، ولا يقتلنا الحياء.

(3)

يا الله لماذا أنا ..؟

يا الله لماذا هي ..؟ و لماذا ورق التوت ...؟

يا الله لماذا تركت الخطيئة تتسلل إلى روحي، وأنت تعرف أن عبور الجسد الأنثوي في باب مخيلتي يفتح تاريخ السبايا ...

ويعيدني إلى التيه؟!

لماذا تركت التفاح يطغى على جسد الأرض المسكونة بالنزوات والصبوة، وغمست مفتاح الجنة بالقار والزيت المر، وحليب التين؟

ألم يُشفَ رضوان من بثور حب الشباب بعد ..!؟ فتقربه الفاتنات وتهدينا.

أم إنه قد عقد قران عفة العقد الرابع على طور المراهقة الأولى مثلي، بعقد مسيار مزور بين الخطيئة والتوبة، فصار التسري فضيلة.

حاشى نسيانك يا رب، أن المرأة تهدي، وتهدى بكل أنواع البخور والمسك وعطور الرياحين، وبكل أرواح القرابين المكنونة على باب خصوبتها.

وأن الروح المكنونة في الصلصال الرخيم، من خلق كريم.

أم إن علة الهداية قد رُسمت على رماح ذكورتنا، فشيدناها معابد للجنس المقدس يزنى فيها قرابين، ولم يغمرها الطوفان.

وكتب علينا نحرث الأرض، ونصارع الثيران، ونصرع بعضنا، وننحر النوق على خطم إساف، وندمى بالعُشر والشبرق، علها ترخي مقابض نهديها نائلة.

ونجمع القمح هدية، نزين به خصر عشتار .. فتنثره حَباً .. ونعيد جمع سنابله حتى اللقيط منها .. فتنثره .. ونعيد جمعه .. ونقاتل التنين حتى لا يلفظ ناره ويحرق حصاد المواسم .. وتموت غريزتنا.

يا الله لماذا هي ..؟

من أين أتت؟ ومن أي باب دخلت تستبيح عزلتي بغزو محبب؟ وتوقد جحيم التذكر في حرقة نسياني المؤجل.

وكيف اخترقت متاهة الوجد الفيضي في خيالات عزلتي بقدومها الرخي؟ وأيقظت روحي من غفلة الرب، وصلصال عروقي من خدر الينسون المتسري في ابتهالات التوبة؟

لماذا اختارت خيمة التوت، مثلي؟ ووبر الحور المنسي على خدر الطرقات المطلية برطوبة النسيان، ودهشة الطحلب من انقطاع الهجرات السامية ..؟

ولماذا اختارت مواجهة الماء، مثلي .. إذا كنت قد اخترت شيئاً؟ وأضافت على أرق عيوني، تعب الحول المقصود في اختلاس النظر على معاني الجيرة، وأثارت فيَّ شهوة الماء المتسري في خاصرة الينابيع لأن يصبح مدناً ..؟

لماذا دخلت من باب الفتوحات ..؟ وفتحت تاريخ الأبواب في حزن ذاكرتي .. وحزن المفاتيح، ونكأت جرح الخيمة المفتوح في خواطر اللاجئين، وأيقظت حلم العودة.

من أين أتت ..؟ تقاسمني الظل وشبهة وحدتي، وشبهة الموت المحوّم حول سريرتي، وتُزاحم حلمي الكفيف على مساحة الوجد الصغيرة في ظنون يقظتي، وتجدد موتي على خارطة الأبواب، وخاصرة المدن المسكونة بالمجهولين، وأسماء النكرات المقصودة في جرح النداء المكتوم لهوية الروح.

لماذا انسحبت من جلد السماء المتعري من أسدية الروح؟ والتحمت بعزلة روحي. وانتعلت جلد المنزلقات الحبيسة في

حفيظة الأبواب المتزاحمة على دهاليز الخلاص، هروباً من وجع اندغام الصوت بالصدى.

أبنتُ مخيم مثلي، ولم يفارقها الحنين ..؟

أم سليلة خيام حطت رحالها في وهدة الأسرار والموت المؤجل في أقبية أصحاب النياشين النارية، فأدمنها السفور.

أم تشكو من صدع في ركن الزاوية اليسرى لذاكرة الموت على أبواب العبور، فأدمنت التمزق في الشتات، وفي الخطب النارية لأشداق الثوريين، ودعاء الصلوات الجماعية، وقصائد الثأر المكفنة بضجر الجماهير البليدة مثلي ..؟ فأتت تبخر روحها بغربتي، وبالتنجيم بنجوم الياسمين البيضاء، وحوَل عيوني المقصود، وحنف رجليَّ العاجزتين عن مغالبة الطريق، وتحنو على مفتاح نفسها، مثلي، فنغدو شريكين في دين حنيف.

تحسست مفتاحي وخيالات الليل، فخانتني النشوة، وانداح فحيح الياسمين المسموم في منطويات الخطيئة. حاولت أن أشعل حمى الرحيل في أشرعة الأبواب، فأبت. سألت المفاتيح المغلَفة بالزفرات الحبيسة، فصارت وجوهاً .. جمعتها بميزان الحساب فصارت صوراً .. كاملتها بميراث الأسفار الأولى صارت خطيئة .. فاضلتها فلم أجد وجهي .. علقتها على مشبك العصب الموتور في نخر ذاكرتي .. صارت مرايا .. تنكرت لها .. صارت أسماء .. نزعت كفن التعريف عنها عادت صفات .. نزعت

جلودها صارت أنا .. عصمتها بحبل الله .. فصارت خيمة .. أزحت خمارها عن ذاكرة الرحيل .. فمزقها الحنين ومواقعة الحور الدميم. وجدت أبناء جلدتي المشتتين في أرض النسيان يحنون على المفاتيح ويصرخون بالهتاف المر، أنا الخيمة والخيمة أنا.

سحبت اسمي من تفاصيل الأسماء المخدورة في فراغ ذاكرة الأشياء الحميمة، كي لا ينزلق على ارتعاش الشفاه تسبيحاً على باب الهجرة.

وقلت: ما دام الطريق طويلاً، وأنا في حلٍ من الحجيج، أكمل الطواف على مفاصل ثوب زائرتي. وإذا أغارت قريش على ضوء ثبيرٍ، فلدي متسع، أنحر الهُدي بالقبلات على مذبح نحرها، ونعزز الخيام بالنسل، ونرفد الحجيج بدم أسماء جديدة، ونشد حبل الرحيل غدا.

(4)

لماذا أنا ..؟

لماذا أنت ..؟

ولماذا ورق التوت ..؟

يا امرأة يلف الخوف نصف ساقيها بالإغراء، ويتم الحياء رسم شهوتها على منحنيات الثوب الهارب من نشوة الريح.

وحيدان نحن، في عالم الأسرار والأسفار ..

ننام على خبب المطايا وخبث النوايا، وظلال الأسوار...

تسحبين خيط الياسمين الفاصل بيننا من عروق ذكرياتي، فينسحب الظل عن كتفي الأيسر، وتجتاح شراييني دماء السبايا.

تفرطين عقد نجوم الصبح بأصابعك المخضبة بالشرود، وتبعثرين صلصال جسدي نوارس.

تعتصرين الغد من دمع البتلات الجريحة، ومن برجي المجهول. فأستحيل غيمة.

تنفضين يديك من حريق الكون، فأتكثف ندىً يتسربل بذاكرة الماء، أرطب وجهك بالنبوءات وأرشح من صلصال نهديك نهرين من رحيق اللوز.

أغسل في كل سحابة جرح خطيئتك، واغتسل بملح البحر.

لماذا أنا ...؟

لماذا هي ...؟

ولماذا ورق التوت ...؟

لماذا كلما انبجست دمعة من حرقة عيون الرمل، أنتشت على ضرعها الخيام وتناسلت قبائل.

ولبست أنا شهوة قابيل وحملت عصاه، وصرت قاتلاً.

لماذا أنت ..؟

يا امرأة تحتكر الحب .. والموت .. والشهوات .. وتاريخ الغزوات .. وكل الانتصارات والهزائم.

يا امرأة تحتكر الصوت الغويّ .. والصمت الحييّ المقصود .. وكل الكلمات .. وأسماء اللغة البكر .. وكل الخطايا .. وفن التثليث .. والتسبيع .. و دورة الأقمار.

وتكتب تاريخنا على ظهر الكثيب الراحل في مدارات الريح، وتختزل الكون في خيمة.

يا مؤنستي في خلاء هذا الكون، ووحشة الماء المسلي. اسحبي شرايين خيمتك من حريق الرمل، فقد مللت القتل.

مدي فحيح الياسمين في عروقي، وتجذري مدنا في نشوة دمي.

تنفسي قمحاً ندياً..امتدي حقلاً.. واجعليني هابيل، يعزق تربتك السمراء، ويسقيها خمراً قطراً.

ودعيني أفرك جبال نهديك بالغيم، وحنَّاء المغيب الخجول، وأعتصر التفاح كي تتمي غوايتي.

(6)

لماذا أنا ...؟

لماذا هي ...؟

ولماذا أورق التوت ...؟

لماذا أتت في غفلة الرب تقاسمني الظل، وتزيد وحشتي في هذا الكون الفسيح، وأين التفاح ؟!.

تململت .. انتفض جسدي .. سمعت خشخشة الورق المصفر .. ظننت أنها الأفعى .. انتظرت فحيح الصوت .. لم يأتِ .. ثم تيقنت أنها سحبتْ ظل الياسمين عن كتفي الأيسر، وقطفتْ من سمائه الخضراء نجمة تكمل عقد الأبراج في تسبيح فراستها.

عدتُ قابيل .. وحملتُ عصاي .. هششتُ بها على قطيعي .. شممتُ رائحة الدم .. فطار جلدي الجديد في أبراج كواكبها سحابة.

.. أجهل برجي يا ابنة الليل .. وأجهل سرك .. وتاريخ ميلادي .. وأمي كذلك.

ارتفعت حدة صوتي ..

اسحبي شرايينك من دمي وارتحلي، لا تجعليني نادماً مرتين.

ما زلت أستغفر عن خطيئتي، وعن خطيئة جدي الأول، وعن شهوة الدم والغنيمة، وما زالت ثورتي فتية.

علا صوتي أكثر ..

خلتُ أن إسرافيل قد زلزل الأرض. طار ملاكي الثاني عن كتفي الأيمن لكنها لم تسمعني، كان صوتي ينخر في العمق كوقع الهزيمة.

بقيت وحيداً .. لا ملوك لي .. ولا سلاطين ..

لا جلد لي ...

ولا ظل يحميني من جلدي ..

لا روح لي ..

ولا موت ينقذني من موتي ..

سبحتُ في قلقي، وسبّحتُ بالمواويل القديمة، فتناثرت لغتي، وتهاوت الأسماء في منزلق الهذيان الرطب، وأنتش الطحلب على خاصرة التاريخ الرخوة، وفاض البحر على لسان الرمل.

أحسست بطعم الملح على تخوم لساني الدامي، فصار البحر أحمر، وزادت ملوحة دمي.

استطال ظلي أكثر من عهده القديم، فتعرى التوت، ومسحتْ ريح الشقاء صفحة نسياني المؤجل، فأورق التين في قسم الرب.

دار الكون نصف هلال فأخصبت دمعتي، وطار هدهداي مغشيين باللون المحير لتينة كفلها، وصار ترجمان سليماني هو الشقي.

(7)

ما دمت خطيئتي لا ترحلي.

مادمت أحمل خطيئتك وما زلت أستغفر عن خطيئة جدي لا ترحلي.

جنوبيان نحن .. وحدتْنا الأبواب ولم نزل نحفظ جيرتنا وإن غيّرنا المكان .. لا ترحلي ..

لا تطردي حمى الكوابيس من رأسي، بحرارة الحقيقة.

لا تسحبيني مجدولاً على فحيح الياسمين، من خيمة العراء في جنة الخطيئة إلى خطيئة الجنة في عراء المخيم.

لا تغزلي عفتك من لجج احتراقي، لا تشعلي ثورتي النائمة في الكلمات النارية.

لست قابيل ولست بقاتل .. منذ آخر حرب تأدبت ...

أكلت قطيعي كله .. وتركت عصاي .. ولم أعد أحارب.

تعلمت زرع الزيتون .. وعد السنين .. وبناء البيوت .. لكن الخيمة تلاحقني.

واسمي يلاحقني .. ومفاتيح البيوت تلاحقني .. وذاكرة الأبواب تلاحقني .. وتخوم الرب الغاضب تلاحقني .. ورائحة اللحم المحروق .. وخطيئة جدي الأول تلاحقني .. فلا ترحلي.

(8)

لم تلو عنق شرودها المقصود على ثورة غضبي، أو نية سلامي الزائف.

لم تأبه لصوتي المكتوم ولا أشركت مع بابها المقصود باباً آخر.

أكملت مسح بقايا الظل المتفشي على حنجرة حذائها، واستقامت تطلق إيقاع النغم المثير لشهوة الآذان الذكرية وغيرة الجنس الآخر.

مسحت يدها على خيط الياسمين الزاحف صوب الشرق، فاهتزت نجومه سرير عبق فاضح، وامتلأت شراييني برعاف الخيبة، وتلون وجهي بحنَّاء الكوابيس.

تكورت على وحشة وحدتي، وانكمشت في عزلتي أكثر .. ارتفع ضغط الجفاف على لساني وزادت ملوحة دمي وهدني الظمأ.

زحفت نحو الماء المنبعث من شلال النافورة، صار سرابا.

ازداد ارتجافي .. تمسكت بحبال حنجرتي .. جمعت أوتار الصوت المشدودة في زفر لهاثي .. فصار أنيناً.

دارت الأرض حولي، فغشا السراب عيني وغاصت الشمس في بحر الظلمات، فنهش البرد عظامي.

سال الملح على لساني فزادت مرارة فمي، عاودتني ذاكرة الأبواب المنسية منذ التيه الأول.

ليتني لم أدخل يومها من الباب الجنوبي لأسوار مدينتي، ربما كنت دخلتها فاتحاً.

لكن قدري أن أكون جنوبياً، وأن أدخل من باب الموتى،

فالدخول من الباب الجنوبي إلى العالم، يدخلك لاجئاً وغريباً.

لم يأتِ الغزاة من الجنوب ولم يأتِ الفاتحون، كل الجنوب مساحة للموت والتجدد.

جاهلٌ هذا الجنوب .. والجهات الأخرى كذلك ..

الجنوب غنيمة حرب .. الغنيمة أُم الحروب .. الانتصار وهم زائف وهزيمة قادمة .. النصر لذة مؤقتة .. طعم الهزيمة ينخر في العمق.

طعم الهزيمة مرٌ كمرارة فمي. جرح المغتصبَة أبقى من لذة الاغتصاب.

كل الجهات جاهلة .. الحروب غنائم .. الغنائم جسد .. الانتصارات زائفة .. عبثاً يواسي نفسه الظافر بالنصر بغنيمة كان يملكها.

ليتني لم أبدأ رحلة تشكلي الجديد من باب الموتى.

تمسكت بمفصل الباب الجنوبي فعرفني، لبست جلدي المعلق في برد العرق اللاسع على مفترق الأبواب فنكأني جرح الحنين ، .." لم تكمل موتك كله بعد"، كي تتجدد.

ازداد انكماشي، فصرخت: لا ...

لا أريد الموت مرتين ..

أطلقت صرختي من حبس أنيني، فاخترقت جدار الصوت، وأحدثت فجوة في هجعة الليل النائم في سهاد عينيها.

انتفضت زوجتي من أحلامها كالملسوعة من يقظة الكوابيس، ومسحت بهيئة ظلها غشاوة الشرود من حولي.

بددت برجفة صوتها الملهوف خيمة الصمت المدوي، وأصابت مكمن الحرب في قلب عدونا الصديق بلعنة.

أفاقت من ذهولها .. وأنا أفقت .. وانكشف عري الوهم عن خيالات هواجسنا.

تلمظت طعم الدم المالح في فمي، فتحررت أوتار حنجرتي من قبضة يدي، وخرج الصوت من دوامة الأنين الأبكم، لكنه لم يصبح لغة.

هدأتُ ثورتها بإيماءة يدي .. لا تخافي ..

لم تقتلني شظايا الحرب، تشظت نفسي فقط، واجتاحتني حرب صديقنا العدو في غفلة تأهبنا الموهوم، فأصابت روحي.

ارتمت على صدري وبلل ماء عينيها الغائمتين في سماء الرؤيا شفتي.

ماذا أصابك ...؟

ازداد انكماشي تحت برودة جلدي المملح بماء الخجل..

قتلني البر .. قتلني البرد ..

ضمتني إلى صدرها كطفل .. انهمرت دموعها أغزر .. وأدفأت أنفاسها برودة وجهي.

مسحت بيديها المرتعشتين حبيبات العرق البارد عن جبيني .. ماذا أصابك ..؟

صحوت من حلمي الوهمي .. كنت أعض لساني طول الوقت.

رمقتها بعين العتاب طويلاً ...

لماذا تركت الشباك مفتوحاً ..؟

كم قلت لك إن الشباك يسرقني، وتتسلل الريح إلى بيتي وتسرق روحي.

انهمرت دموعها أغزر .. صار ارتعاشها نشيجاً صامتاً .. وأنا بكيت.

اختلطت دموعنا وطعم الدم المالح على شفتينا.

هدأ ارتعاش جسدي .. شعرت بأمان مؤقت ..

ولكن الشباك ما زال مفتوحاً والريح ترسل ثمار تعبها صفيراً أهوج وغبار حرب.

الفصل الثاني

مزامير

(9)

الريح ما زالت تتم محاولة الدخول من شباكي بكل كثافتها، تناور منحنيات التخفي المغزولة بخيوط الرغبة، خط تماس وهمي ما بين الحفيظة والاعتزال، وتكمل تجسسها الأخير على سريرة الذاكرة القديمة.

ترتد ثم تعود، تداعب بعاطفة أفعوانية جسد الغابات المعتق بالنفط، ثم تسيل في شقوق ذكرياته، تستحضر تلاقح الماء والشمس.

تحك جلدها بندوب الأحلام المنسية، ثم تتبخر غيمةً من غبار الأرض وغبار الوهم وغبار الحرب.

صفير الريح في شباكي، لا يعزف لحن الكون المتناغم على حركية الوجود، وأنا لست (شيفا) يرقص مأخوذاً بالانسجام والتوحد النهائي مع الأنغام.

الريح تحمل صوت دويها مزامير، تنخر أسوار ذاكرتي وأسواري.

تستحيل طيوراً، تكنس زوايا الأزقة المتشابكة في بوح الروح، وتمسح بقايا العرق المتفشي على تعب السريرة، ظلالاً تائهة لجهاد زائف.

ترتمي على صدري سجيلا، يجاهد الشيطان النائم تحت غلالة الإيمان وكفن الشهادة.

تكشف عن زاد الخطايا الملفع بأثواب العفة وبهرجة التنكر، وتكمل انسحاب كثيب الوهم الجاثم فوق الصدور، توزعه دروباً و تشتته مسارب.

الريح تعصف لا خارج شباكي، بل في مسارب نفسي،

تثير غبار الشك والتجديف، وتجسر الهوة بين الغضب والشتائم.

تحك اللون الزائف عن كفن الحلم المتخثر في صقيع النسيان الإرادي وانكماش المكان.

تنثر هيولته نتفاً من خيبة لزجة على مزق الوقت، وتحيلها قيئاً مالحاً من فوات الأوان.

سديم ضباب ثقيل يسحب الكون إلى كوة الانفجار الأخير.

ثقب أسود يمتص الأحلام إلى نَفّس البداية.

نثار فتات الكون غبارٌ عارٍ؛ يوزع تصادمه الأهوج في كل الأثناء والأشياء ...

ويترك أثره على الجدران والطرقات المهجورة في الليل الرمادي العاقر.

الكون غبار حرب ...

ما تخشاه .. هو أول ما سيقع لك.

المنزلق الذي تهرب منه سيمتد ليسحب قدميك.

كثيب الأمل الذي كوّمته على شفاء الجرح القديم، تزيحه الريح بغفلة عين.

حرف الوجع النافر في بوح الذكريات الحزينة، يمدد الزمن نحو انتظار جديد.

رماد المراكب المحروقة بلهيب الشوق التائه في عناق المسافات المجهولة، يتكثف دوامات حنين.

تنتشر زغب فينيق أبريٍّ، تستنبت ذاتها في كل مسامات الجلد الجديد، حتى لا يصير الجلد رداء.

حتى لا يعرش الوهم على عتبات الكون العاري، ويصير التسري فضيلة.

كي لا يصير المسيار عقداً سرياً بين الخطيئة والتوبة.

كي لا تصير القبب الكبيرة سماء بديلة وتحتجب السماء.

كي لا تصير الخيمة وطناً للموت النازح نحو الروح.

كي لا يصير التاريخ خرافات وهمية تعشش في خصب الخيال النازف وتصير الذكريات بغاء.

(10)

لماذا تركتِ الشباك مفتوحاً ..

ستمتد الصحراء إلى أرض السكينة والغفران ..

سيقتلني البرد، وتقتلنا الحرب ..

حذرتك: أن أي شباك سيُفتح في جدار سريرتنا سيسرقني منك..

ستصير روحك بحرًا من ورق الشوق العدمي ...

وأصير حبر العتاب ...

ستسرقنا الدروب شتاتاً وتنسحب الجهات ..

سأهرب من أحلامك، وسأخرج من كلمات رسائلنا المعتقة على شرفة الروح، كخيط التين المحنط باليسنون والشمس، زاداً مؤجلاً لشتاء نسيان قادم.

سأهرب من صورة زفافنا المؤطرة بالزغاريد والنسيان على قارعة السرير الدافئ في حجرة أحلامنا السرية ..

ومن وشوشات المساء.

(11)

لماذا تركتِ الشباك مفتوحاً ..

الريح تبعثر أوراقي، وتربك حرف الرويِ في حكايتي، تنثر الكلمات كما تنثر الطائرات أوراق الإنذارات في الأفق العاري، وتخلط الأفكار كما تختلط الألوان النفطية في سيول الشوارع.

تُشتتها دوامات لفظية في منعرجات المسيل المتخابث، وتنثر الحروف نداء بغام، يبدد الأسماء المغزولة بالنكرات ووبر الليل المتعامي، لهاثاً أبكم.

سيهجر الأشخاص أسماءهم .. وتدخل البداية في النهاية ..

سيهرب المعرّف من كفن التعريف .. وتصير النكرات نجوما.

سيصير اللحن السرديُ نشازاً ، فتعترض المسامع عليه.

سأُتهم بالعقوق والتنكر لميزان البلاغة وتقسيم الفنون.

(12)\

لماذا تركتِ الشباك مفتوحاً ..

الريح تنداح في مدارات الوهم المكنونة في بوتقة الروح كأحزان المواويل.

تحل جدائل التفاؤل والتشاؤم فيها ، وتنثر الشعر مراثي للعمران.

تكنس الهزيع الأخير من غبار الوهم عن أروقة النفس ، وتزيح ستائر النسيان عن أحجار الذاكرة.

الذكريات أحجار عثرة في طريق تشكيل الكيان ، والنسيان حفائر صيدٍ مستورة بغياب الخاطر ..

تبدد الوحي بالكلمات ، وتثير اللغط على الفكرة.

الذكريات حياة محنطة في بوتقة الإمكان ، تنتظر أوان الصرخة كي تولد في الأمثال الشعبية.

والنسيان مواسم ترقب .. تشرب ماء الانتظار الصامت وتثمر فوات الأوان.

تغلق شبابيك الهواجس في أحلام اليقظة .. وتفرش الإيمان سرائر نوم .. تدثر النفس براحة البال.

الذكريات فيض خواطر، تتناسل في تشابه الأحداث والهواجس، وتعشش في شرنقة الأيام المكلسة بالتنكر والنسيان.

(13)

لماذا تركتِ الشباك مفتوحاً ..

الريح تبعثر أوراقي، تكشف أوراق حلم قديم تآمرت مع الأيام على تبديده، في زمن لم يعد يتحمل الأحلام.

الريح تحشرني هناك، في ظل شباك قديم هجرته ..

أمي ما زالت هناك .. تتكئ على عتبة الشباك المفضي إلى امتداد الكون المألوف لديها .. وامتداد الطريق الذاهب صوب المجهول..

ترثي أحلامها القديمة مثلي ..

تجفف بمنديلها العتيق دموع الترقب ..

تسرّح شعر شمس الغروب بعينيها, كي تفرج عن ظل غيابي، فأعود .. قبل أن يداهمها العمر بكشف حساب السنين ..

تغسل بالنشيج الصامت غصة الحزن المعقود على خيط الأيام، وغضون الجلد المتهدل حول حنجرة ألفها الصمت ونسيها الكلام.

تحك ركام الحوادث عن سبّحة العمر التي لا تمل تقليبها، حتى لا تصير ذاكرة.

تفتت شرنقة الزمان المتكور على نسيج عمري، تنثرها فراشات منقطة بالأمل والصمت، تحمل صور وجهي المخبوءة في خيالات عينيها، كي تُسقط تهمة العقوق عن ظل وجهي الغائب.

تفرك بدموع الحيرة غشاوة صورته الأخيرة، كي تستحضرها بوضوح كامل.

تسترجع مخاض ولادتي العسير في جوف المغارة نصف الآمنة، و سقفها الراشح قطراً، يخفف ببرودته حرارة جبينها المتعرق.

وتستحضر طيف خياله، يتكئ على حائط الجسر المؤدي إلى مسقط الرأس ببندقيته الطويلة، يعد طلقاتها عداً فصيحاً ... خمس طلقات ..

خمس طلقات وخمس ليالي مخاض عسيرة، من غرة الشهر وغرة القيظ، كمساحة ذاكرة.

خمس طلقات تكفي ليثأر الرجل لموته الأكيد إذا حصلت المواجهة.

وإن كانت قذيفة، ستلمُ شمل اللحم المحروق مع لحم أبيه، الذي وزعته القذيفة نتفاً مشوية على أسطح البيوت في الحرب السابقة، وأثارت في الجو رائحة تفتح شهية البكاء والصوم.

تسترجع صورة حيرته، يوم بشّرته الداية العرّافة، بعد ستة أيام من وجع المخاض بهدية الرب ..

ذكرٌ .. لو لم يكن حمله دنساً لكان تقويماً جديدا ..

فأجابها بشرود:

ليكن ضحية، يفديها الرب إن أثبت نبوءته.

أو يشاركنا الموت قرابين على سفر الملوك، كأوراق الخريف النازح في رحيل التجدد.

أبي لم يمت في الحرب، ولم يثأر لموته أو موت غيره ...

ما زال هناك، يفترش المقعد الخشبي الطويل على جناح الشرفة المطلة على الهاوية.

يداور بعينيه الدائريتين، سريعتي الحركة والحادتين، نصف أملاكه، ثم يفتلها، كصقر هرم يجمع الفريسة بعينيه ولا ينجح في الانقضاض.

يدّلك بخشونة كفيه ندوب السنين التي ماتت على احتكاك ساقية بحذاء الفلاحة، ووجع الأرض.

كما تموت الحرية على أحذية الجنود، وفي أوكار الهزيمة.

يقول لها: تعالي ... قلت لك لن يعود ...

إن كان منتصراً لن يعود .. وإن كان مهزوماً لن يعود.

إلا إذا وقعت الحرب مرة أخرى ... سيعود لموتنا أو لموته.

حتى إذا اشتعلت الحرب ... لن يعود ..

ويبلل احتراقه بالدمع المخنوق في عينيه ...

لن يعود حياً.

يقول العبارة الأخيرة بصمت دون أن ينطقها، كأنه يمنع تحول ما يفكر فيه حتى إلى قول صريح، ويمنع انسياق الحديث القصير نحو احتمال مرفوض الحدوث، يثير الحفيظة في نفوس لا تنقصها الشجون.

(14)

يعّدل جلسته مستعيناً بمسند مقعده الخشبي المدموج كأخمص بندقية، كأنما نكأ حديث العودة والموت جرحاً قديماً في خاصرة الذاكرة الرخوة.

يمد بصره نحو الأفق الشرقي المصفر كهواء الكوليرا .. يشد بقبضتيه الجافتين على مقبض سبيته، ويحوم بنظره حول نفسه، ويحوم بذاكرته في سماء الأفكار الهاربة كهروب الظل في العتمة.

يتفرس في أحافير الخشب التي ازدادت عمقاً كشقوق الذاكرة، وعجزت محاولات تطعيمها بخشب جديد عن منع تفسخها، وانحلال مساءا تهِ في تحللها البطيء بين العتمة والشمس.

يتلقف ذكرى الطفل الذي كنته وليداً وهو يحرس جسر العبور، وذاكرة الطفل المعيل الذي كانه يوماً، على نفس الجسر ذي القوسين في موكب وداعهم الأخير.

يومها .. تجمعوا فرقاً من كل الشعاب الممتدة على كتف الوادي المتعرج، والمنحوت بمزاجية السيل والمطر.

يحملون راياتهم وطوطمهم وتعويذات النصر، ولهيب (الحدا) البدوي وبقايا المواسم.

تشيّعهم العيون الممتدة نحو الطريق الذاهب صوب التيه في الأفق المصفر، وزغردات النساء التي تغص بين الحين والحين بالنشيج والبكاء.

كثيرون منهم لم يعودوا، كثيرون عادوا جثامين، لم تلف عليها الرايات ولم يبق للوطن رأى ولا راية، وما تبقى لا يلف الجميع ..

أبناء عمومته كانوا خمسة، قبضة يد كاملة، تستاف هشيم المواسم وتقبض على أخمص المحراث، فيترك في التربة السوداء فجاً، يرسم طريق البقاء لسيل النسل المتقافز في الأعشاش، كعصافير الشوك.

أربعة منهم لم يعودوا، نسيتهم الدروب والحكايات، زرع العدو هياكلهم فزاعات على الحدود الجديدة، تنفض عصافير الشوق وقبرات الحنين عن أرض القداسة والجنون، حتى لا تلوث أعمدة الهيكل.

والخامس عاد .. عاد مشوشاً .. خنصراً ضعيفاً، يحمل طوطمه وغنيمة حربه، مقعدين .. مقعدين ومُقعدين، مقعدين من خشب غريب، يشبهان كثيراً رحالة دفن الموتى القديمة في الأرياف، وعصا ضابط، احتفظ بها حتى موته ..

ربما كان يظنها عصا موسى، أو صولجان الملك، أو ربما كان لها في ذاكرته طيف آخر.

المشوش كان خاله، خاله من عمومته كجري العادة، أهداه ثلث غنيمته .. مقعده الخشبي، فألبسه الشرفة وأدمنه، حتى صار شباكه المطل على الدنيا والذكريات.

ربما وجد فيه ثأراً لشواء اللحم المنشور على أسطح البيوت من قربان أبيه .. ربما ...

وبعدها مرت سنون على ثأره، أفواج كثيرة راقبها من شباكه تعبر الطريق نفسها.

ترسم في الأفق المصفر خارطة الهجرة وخط الحجيج.

لم يودع الكثيرين منها ولم يسمع أخبارهم. حتى أنا، يوم خرجت من باب اللاعودة مع الجيل الثاني من أجيال الهجرة، نقتفي أثر الأحلام الأثيرية في الأفق العاري إلا من وهم انتصارنا في تحقيق صبوة الروح، لم يودعني. ظل هناك منسياً، يمسك بأخمص مقعده الخشبي، يحمل تاريخا لحكاية نسيها التاريخ وخارطة مُسحت معالمها بخفيف الأماني، وأكلتها الأسوار.

(15)

لماذا تركتِ الشباك مفتوحاً ..

الريح تثير غبار الشك والتجديف في عينيِّ وتعيدني إلى التيه ..

أتحسس طعم الصحراء على جفاف لساني، ورائحة البرية.

الريح تفتح في ذاكرتي تاريخ الغزوات، وتاريخ السبايا.

الغزوة حرب بدوية ..

أسمع صهيل الغبراء يشق عباب الصمت بسيف الثأر،

ويموج على أجنحة الليل كتاريخ القبائل ..

أسمع جلجلة عتاد الزير .. يقسم بالزق .. وبملك أخيه على الثأر من جمال المحامل.

ويغتسل على أبواب الحمى بدماء النوق من عطر البغايا ..

يسفح الرمل على قافية القصيدة، ويخط بالسيف الثقيل على صفحة الكثيب، خط النهاية لسباق جديد ..

أسمع صلاة الخنساء في الصبح نشيجاً مقفىً ..

تدعو بإجهاض كل النساء على صخرة صخر، كي تقطع رابطة الدم، ولا تعاد الفجيعة مرتين ..

تمسح بالدمع الدامي، تفعيلة الأحلام من متن القصيدة،

كي لا يغيب الأمس الحزين عن خط البصيرة العمياء،

ويذوب الحرف النافر من سورة المأتم ..

(16)

في الأمس مروا من هنا ..

رفوفاً .. جمعتهم الأحلام نزيفاً من شرايين الجبال المعلقة بالغيم، وودعتهم الجسور على درب العودة.

أمس مروا من هنا ..

تمتمات أمانٍ، من زفرة السهوب المحرومة من نسل الخصوبة، وامتصتهم الدروب المدلكة باحتكاك الذكريات وأحلام المسافرين ..

صاروا سيولاً .. تشكلوا دوامات يعلوها الزبد النازف من رغاء الكلام والأغاني ..

سحبوا خيوط الورق المصفر من مواسم تبغهم، ملؤوا أكياس مؤونتهم، وبخروه دخاناً ملوناً بزفير التمتمات والأمل، صار غيمة تظلهم من شمس التيه ..

أمس مروا من هنا ..

عصافير ضاقت أعشاشها على تريّش بعض زغبها، ومداعباتها الخشنة، وحار لقيط السنابل في إشباع رغباتها.

كلٌ يحمل من عشه قشة، ربما ستصبح بيته، ربما تصير عصاه.

كثيرون كانوا عشاقاً، عقدوا على قشاتهم وشاح المحبوبة، صار راية ..

مسحوا جلودهم بالزيت المر، كي لا ينسوا رائحة الزيتون ..

كثيرون تركوا أمهاتهم، يفركن السنابل اللقيطة بعد الحصاد المر

يُعدن التاريخ إلى ذاكرة البدء، ويملأن أكياس مؤونتهم. كثيرون لم يفِ أباؤهم دين الموسم الفائت لتجار المدينة. استهلكوه في إثبات هوياتهم، شهادة تعليم القراءة.

أمس مروا من هنا ..

رفوفاً .. مزغبة من أحلام تائهة، لم يكتمل عقد ريش الذيل فيها، لكن قلوبهم كبيرة ..

ودعوا الجسر وعاهدوه على مداومة الحنين ..

امتصتهم البوابات على اختلاف الجهات، وجمعتهم المدينة.

صاروا بيدرا .. صاروا مدرسة .. وعبق تبغهم المزفور غيمة ..

كبرت قشاتهم .. صارت عصياً أو حراباً، بنادق أو رموز قيادة، وحلّقت رؤوسهم فوق النجوم .. صاروا كواسر. لكن ذيولهم بقيت قصيرة .. تعلموا الطيران والمشي الموزون، تعلموا تشكيل الصفوف والرفوف المنتظمة، وأغاني الحماسة ..

صارت الحرب ثورة، والرايات أكفانا.

انتظموا كراديس مخمسه، خلف كل أربعة خامس بزي مموه، يسحب ذيلاً طويلاً كطائرة الورق ..

صار الذيل طابورا، وصار الوطن طروادة. صارت الثورة غزوة وصارت المدن غنائم، وصارت الأسوار خياما.

و"تخايمت" خيم على خيم و تعسكر المدنيون وتمدنت الحرب. فنزحت مدن وحلت خيام.

(17)

لماذا تركت الشباك مفتوحا ..

الريح تتكور في شباكي مثل أفعى تجرعت سمها، تستحضر عشرين عاماً من عمرها ومن عمري.

تستحضر الجزء الأخير من حديث الشجون القصير على شرفة العمر المطلة على الهاوية ، ينتهي بصمت الانتظار المر والترقب.

هيَ تعقد منديلها على مسند مقعده الخشبي ، بعد أن مسحت به جفاف حنجرتها ، وتركته يبخر الكلمات التي لم يكفِ نفّس الشهيق الأخير لإخراجها صوتاً فصيحاً.

وهو .. ما زال يمسك بأخمص عصاه التي لم تزهر .. يمشط الأفق العاري بشرود عينيه الحائرتين ، ويحرس جسر العودة ..

والشمس تنهي انسحاب عريها ، من انكسار لهب الصيف الأخير على ريح الخريف الحبلى بغبار الكون ، وأخبار الحرب النائمة نوم الثعالب في كل الزوايا ..

حرب بغير صورة الحرب ، لكنها تحمل أهم معانيها.

الدمار أكبر معاني الحرب ، والضحايا أسماء الشوارع ..

كي لا تهرب الهزيمة من الذاكرة ، ويجللها النسيان.

وخارطة الوطن المحنط على الكوفيات، والموزع رايات على مفاتيح البيوت القديمة، تنهي وداعها الأخير لحبات الأرز في رحيل آخر نحو هجرة جديدة في اختلاف الجهات.

ترسم في الأفق مدارات التشظي لثقافتنا الجديدة، وترسم نصف الحدود.

لم أحمل يومها رايتي .. ولم أحمل عصاي ..

يومها حملت كغيري من المهاجرين، غبار طلع القرية، ونفضناه على أطراف المدينة أسواراً، وأحزمة من البؤس ..

نحمي المدينة من حمى انتشار الريف، ونحمي الريف من امتداد المدنية إليه.

كانت عصارة الإسمنت الحارق قد أكملت اجتياحها النهائي لأرض الشيوع المهملة، تكوي بنارها أيادي العمال، والقسم المتقدم من أسراب الحور والجوز باتجاه سور المدينة القديم ..

وسالت على أسطح الخيام المتزاحمة في الشتات، وافترشت لهيب الصفيح الحاضن لأكوام اللحم المشتت، فبردته وأطفأت حلم العودة.

صارت الخيام خاصرة .. صارت هاصرة .. صارت مخيما .. صارت سورا، وبرك الطين بحيرة .. وآنية الزريعة الصدئة بيارة.

حملت الدهاليز أسماء المعابر والمنابر .. وحملت الحارات أسماء المدن.

وكفن (ليرتس) لم ينته كي يموت بجلال، وخيط (بينلوب) يحرق النهار بالليل، ويبدد الوقت عن وجه (أوليس) المغيب، و يوزع العشاق فصائل، صوراً ورايات وتيارات وعصياً.

وتشتد حرب الغيرة على زاد الولائم، وأرصدة المملكة الجديدة.

كبرت الحرب وتحركت الأسوار، وصارت الحدود قضية .. وأكوام اللحم المتحرك قضية .. وخيط (بينلوب) الطويل لم يغزل لـ (أوليس) شراع العودة في البحر الهائج. غزل خط الهدنة وخط التماس، وحكاية حرب.

(18)

أمس مروا من هنا ..

أمس عبروا الجسر في القرى التائهة على رائحة البخور والزعتر..

كثيرون ماتوا على جسد المحبوبة عشاقاً. لم يُلفوا بعلم الوطن. كثيرون ماتوا على جسر العودة.

والآخرون ماتوا في تقاسم النفوذ والغنائم.

يومها كانت الريح حمراء، ومدينتي تغسل جسدها العاري ببخار النفط المحروق، ورائحة الإسفلت المعتق.

تكوي بعصارة الإسمنت جرح الذكريات القديمة، فتستحيل دمامل صدئة، تنفض قيحها البني على الطرقات.

ويعرش الوهم على أروقة الوقت، وينسحب الياسمين.

وأنا وافد جديد، عاشق آخر، يبحث في الجرح المفتوح في نحر خاصرتها الجنوبية عن هوية ..

عن رقم خانة يعرفني، عن جواز عبور لباب الموتى، وعن جلد جديد ...

عن حلمي التائه في مدارات الوهم و الصبوة، جناحين من سفر ومن خيبة ..

لكل طير جناحان، من سفر ومن عودة .. المهم أن يكون القلب كبيرا والذيل دفة، وإلا سيدفن ابن فرناس مرتين في الأرض الرطبة وتهجره الأحلام.

يومها دفنت حلمي هناك، ولبست أحلام غيري. تلفعت برائحة الريح، وتشربت بروح الحرب.

نفخت الريح شرارة الحرب في هشيم عنف الشباب فيّ، فاشتعلت، واحترقت بنار الثورة والحرب. احترقت طويلاً ..

وبعدها .. تكثفت الأوطان في الحقائب، وتبخر المواطنون جماهير في الأغاني والخطب.

وأكلت الحرب زاد مواسمنا، وأسماء الشوارع والمعالم، وتمددت الأسوار لتأكل القدر الباقي من مساحة الذاكرة ومساحة الأرض.

لم أكن لأدرك حينها، أن أيدينا وأحلامنا هي زاد ذلك الحريق، وأننا أبطال تلك الملحمة.

وأننا والجيل الأول للهجرة فرسان انتصارها.

الآن صار بمقدري أن أفكر بذلك أكثر .. بمقدوري أن أتخيل ما معنى السور .. وما ضرورة الأسوار .. ومتى تهجر الأبواب من أسورها .. وكيف تمتد البيوت لتصبح عائلة من طيف واحد .. وكيف تتشظى العوائل لتصبح مدنا .. وكيف تمتد الحروب إلى المدائن، لتحيلها عوائل وطوائف وممالك وملوكا ودولا ..

صار بمقدوري أن أفكر، لماذا لا تحتاج حقول القمح إلى أسوار..

وكيف تخرج الأسوار من حمى التملك في الرأس، لتوسيع دائرة الأيدي في معانقة الوجود بعنف عاطفة السيادة، أو بغريزة الخوف من الزوال السريع.

وأن السنابل التي تختال بشعرها المتموج في الربيع، تحمل ذكرى التعتيق في الشتاء البارد، كي تحفظ تاريخ السلالة.

وأن الأسوار تأكل من مساحة الوجود، وكلفة الوجود أكثر من مساحة وطن ..

وأن الأسوار والسرية لا تحقق الأمن ...

وأن الإنسان ذاكرة ممتدة ...

وأن التاريخ المكتوب في بلاط السلاطين مزور ..

وأن حكايات الناس هي التاريخ.

وأن الهجرة باب سري للدخول إلى الوطن المحنط في الذاكرة ..

وأن الانفصال بين الإنسان والتاريخ وهمٌ ..

وأن الانفصال بين الوطن والمواطن وهمٌ ..

وأن الأسوار خديعة كبرى.

طوبى للمفاتيح ..

الأبواب أسوارٌ وهمية، والحروب ألعاب عنف لتبديد الطاقة الزائدة .. أو للتكفير الموهوم عن الذنوب ..

طوبى للأكفان ..

الأكفان صرر ذاكرة .. الأرض حياة .. الأرض قبور ورماد .. المدن تاريخ .. المدن حكايا .. المدن سبايا.

ما زالت روح أثينا ترفرف جريحة خلف الأسوار، وذو القرنين يستبيح أسوار الشرق، ويحرق بالثلج البارد وبخار الصبوة، رائحة الحنين ومراكب العودة.

ينتحر على بوابات العذارى في مدن الشمس والظلال، ويهجر قصره الموشى بمنقوع الدم والقار، ورائحة الخيانة من عظام رفاق الطريق القدامى.

طوبى للدروب ..

الدروب رسائل.. الدروب غايات ووسائل ..

الدروب حفيف الحنين على وجع الغربة، واحتراق الشوق على جسد الخطيئة، أو جسد الغنيمة ...

(من غير أن تسافر بعيداً تستطيع أن تعرف العالم كله، من غير أن تنظر من النافذة تستطيع أن تعرف طريق السماء)

طوبى للمدن ..

المدن قوافل .. المدن تبادل وتداول ..

المدن تواصل .. يُسقط حكم الحنين عن تهمة الغربة، ويُسقط صفة الغريب عن اسم المهاجر.

المدن لحظة خصب في احتراق لواقح الجهات ..

تنام على وهم الأصالة وقلق الاختلاف ..

ومدينتي .. كلما هبت رياح الحرب، تنام على وهم الانتصار وقلق الهزيمة.

كنت أعتقد قبلاً أن المدينة لا تنام مثلي على غرق الضوء الخافت في عتمة ما بعد الغروب، خوفاً من المجهول، وتفيق على صياح الديك إيذاناً لفجر تعب جديد.

وحين كنت أندس بقبر أحلامي في نخر خاصرتها، ملتفاً بجلدي الجديد، وبظل مخاوفي، كانت تنام على أعراف الحرب وتاريخ القبائل، وتنسج من حفيف الضوء الشارد بظلال العتمة بهرجة تنكر.

لا يكفي القرية أن تسيل في امتداد الأفق كرائحة الرطوبة في مطر الخريف، كي تصير مدينة.

ولا يكفي المدينة أن يتطاول عمرانها نحو السماء، وتزخر في انتشار التكايا، كي يصير لها بطاقة تعريف مدنية.

المدينة بطاقة تعريف أخرى .. المدينة هوية.

المدينة تجذّر الأحلام في امتداد السواقي، كي يزهر الروح على شجرة الوجود ولا تموت السماء من الجفاف.

المدينة إعمار الأرض بروح الاجتماع، وتكثيف السور العظيم بخاتم خطوبة.

وتدجين القمح وليمة احتفال علنية في حضرة الرب

لا يحضرها الجنود.

(19)

أمس مروا من هنا ..

كرادايس مشتتة، يبحثون في الأفق المكلس بزغب الحور، وصفير الريح، عن جسر العودة وعن رائحة الزعتر.

يجرون العتاد النازف وحطام الأحلام الكسيرة وخط الحدود.

يلفون الخيل الجريحة برائحة البارود، كي يطوي وجه (نوبل) المدهوش، عصر الفروسية.

وتترفع الضغينة عن أسباب الحروب.

يعمدون النهر الهارب من حمى التلوث، بالدم والأسئلة

ويغسلون الجرح المفتوح بالملح والأجوبة.

يسفحون الأرض المعروكة برحيق الزيتون والتمائم، ضحية لختان المولود الجديد.

وينظفون ظهورهم من أدران الدم الفاسد، بالنار وكؤوس الحجامة.

يتسوكون بصلاة الغائب والشعر المقفى ...

يلوكون عقابيل النخل المرطب بالبيعة والقبول ..

ويقيمون الحد على الخنادق.

(20)

أمس مروا من هنا ..

يلفون أسرار البيوت باليتم والعراء، ويمسحون وجوههم بالريح والأشرعة.

يتوكؤون على المفاتيح المسقية بالدمع والحرقة، ويكتحلون بالزنجار والإثمد، كي يُعتصر الأفق الحزين من الحدقة.

يفترشون السهل السائب من خاصرة المدينة، ويتوسدون صرر الأحلام في مخيم الاستراحة الطويلة على تعب الطريق.

يدفنون موتاهم بأكفان الحيرة، ويغسلون جراحهم بالصبر وملح الانتظار.

يعقدون زيجاتهم بالمسيار، كي يتناسل الحنين على مورثات اللجوء، فيمتد المخيم.

وتعرّش الأحداق على أفاريز الشبابيك الوهمية، حتى يتاح لزرقاء اليمامة العمياء أن ترى طريق السماء.

(21)

لماذا تركتِ الشباك مفتوحاً ..

الريح تغسل عقدي الرابع بالهذيان والعزلة ...

تحك بثور الأحلام المسجاة في برزخ النسيان المؤقت، وتوقد جحيم التذكر بحرقة الخيبة ...

تمسح ظل بخور القبول عن رائحة الرفاق القدامى...

وتخلع جلباب التماهي عن جسد الصمت النازف في منعرجات الطريق ...

تفتّت كلس التحجر الثقيل عن شفافية الأجنحة ...

وتعتصر من شرنقة الكلمات أفقاً جديدا ...

تنسل من رداء القداسة أسدية الوثنية ...

وتفتح في لحمة التخفي على جسد الخطيئة شبابيك.

تنفض عن أقانيم الفروض غبار الضرورة ...

وتزيل الالتباس عن كفن الشهادة.

تحتّ عن جبل الأوهام قشور القناعة ...

وتعطي للأرض المنهوبة غباراً ...

اسم موقعة جديدا.

تهز بصفير مزاميرها أسوار مجاهلك ..

فأعرف نفسي ..

وتطفئ ببخار الشمع المحروق لذة الغفران على شباك اعترافك.

الريح تدفعني إليك .. وتسرقك مني ...

وتدفعك إليّ .. فأهرب من ظلي ...

تشحن مهماز الرغبة ببخور الحنين ...

وتذرونا غيمتين من حرقة دمعٍ ...

تحفان خيوط الشمس برائحة الحنين وألوان الرغبة.

تعلقنا على أجنحة الكون المظلم ...

طيفين من لون المغيب المتهاوي ...

طائرين من ذاكرة البحر المنسية في التيه الأول ..

طورين من تعب الرب في زفر الخليقة ...

حدين على وجع الأرض الممتدة في شقاء الروح ...

دهرين من ذاكرة العدِّ المسمومة بالوقت ...

من ألف التشكيل الأولى في آه التكوين ...

إلى ياء التنجيم المركونة على جسر العودة ...

الريح ترميني إلى حضن ظلك الهارب في التاريخ ..

عقدين من جرح انتحار العزلة في حضرة الرب ...

عقدين من انبجاس الأنس من ضلع الوحدة ...

عقدين من انتحار التوت على جسد الخطيئة ...

كي تذوب الظلمة في النور ...

وينحل الكون في التاريخ ...

كي يصبح العالم سكنى.

خليلتي صرتِ ...

خليلتي كنتِ ...

منذ ابتدأ الخليل بإيواء الرب من سفع الرمل ..

وهجرت هاجر ثوب العفة .. وأطلقت الفداء ..

وصار للروح ملوك وللتضحيات عيد ..

ومنذ استراح الله من شرح العلة بالنبوءات والألواح

وأسقط فرض الاستغفار من طقوس العبادة ..

خليلتي صرتِ ...

منذ التقينا على ضفة الجرح المفتوح ...

في خاصرة الجلد الجديد .. مصادفة ...

وامتلأ الكون بماء الخصب وبخار الدهشة.

غيمتين صرنا ...

نحمل مطر الربيع المؤجل في الأمواق ...

نشحن دوي الصمت الشارد في الأفق المفتوح ...

ببريق الحدقة.

نمتصُّ رحيق الكون إن تعانقنا ..

ونشرب القمر ...

نوهم خيال العرّافات أننا البحر ...

نشرب البدر على صوت الصفيح ...

ورقص المشعوذات ...

كي يرحل اللجوء من مزق الخيام ...

ويأوي اللحم المشتت إلى ظله ...

جثثاً محنطة.

ويسقط الحياء عن عتبات البيوت الوهمية ...

كي يتناسل البشر.

ظلين كنا...

نتكئ على تعب النهر الهارب من سفح التعويذة وطناً.

نشدّ الجلد كي يمسح سطح الظل ..

ونتمتم بالأسفار ألا يُكتب لنا سفر خروج جديد ...

غيمتين كنا ...

خيمتين صرنا ..

نشد الحبل بالحبل كي ينتحر الوطن الشتات ...

نمتص الأرض الميعاد بالحبل السري ...
كي لا نتنفس الهواء الملوث بالغفلة.

زفرتين صرنا ...

من وجع القهر المقيّد بالصبر ...
كتاريخ الفقراء.

صرختين صرنا ...

من وجع الجرح المعتّق بغبار الحرب ...

من ململة القهر المحبوس في زنازين النفس المنفردة..

من دمعة الأسوار على كتف الريح ...

من موت الأسرار المخبوءة بالنوايا ...

من ذاكرة الريح ...

ومن شقوة الروح ...

من باكورة الكلام العصيِّ على التقنين ...
... وصار الكون شبابيك.

(22)

أمس مروا من هنا ..
أمس عاد المشوش يحمل عصا موسى فلا تطيعه ...

أمس ترك المقعد الخشبي شرفة الروح ...

وحرق الإسمنت رائحة ظله المحفور بالذكريات ...

وغادر العشاق ...

أمس نزفتنا الجبال من شرايينها المعلقة بالغيم ...

وبخّرتنا السهوب من غبار القحط ...

حجيجا على خط الهجرة...

وودعتنا الجسور.

أمس شربتنا الدروب طوائف على دين ملوكها ..

تبحث عن ملكٍ ...

وتناهبتنا المدن مماليك.

أمس كانت الحرب .. وتنفسنا غبارها ...

وهواء الكوليرا من رائحة الوجوه الصفراء.

أمس ولدتُ ...

من عبق العفن المعتق في جوف المغارة ...

من رعشة قلق في رأس المولود الساخن ...

من صرخة ألم تجتاح الضغط الهابط في شريان الرئة اليسرى ...

كي أُطلق كلمة ...

كي أفصل من حبل السرة اسماً حراً ...

واسحب دمي من دمها المتخثر في تعب المشيمة ...
وأصير دماً جديداً مباحا ...

أمس ولدتُ ولم أثبت نبوتي ...

أمس مات الأحنف متمسكاً بزيه العسكري والنيشان ..

ربما يثأر لهزيمته في حرب جديدة.

ومات قريبه الذي تدبّر مع الزعيم أمر قبوله في الجيش وهو أحنف.

مات بغليان السرطان في رئتيه المزكومتين بعصير الفحم المقطّر من دخان التبغ المهرّب، وترك خلفه غيمة.

مات الكثيرون .. وأنا كبرت ...

وضاق خيال القرية على صبوة أحلامي ...

وضاقت بوابات المدينة المدمَاة بالغزوات على دخولي.

أمي وحدها بقيت هناك ...

تحفُّ أفق الغروب الفسيح بالترجي ...

وتحفُّ اللوم عن ثوب عقوقي ...

أمس وقفتُ على بابها الجنوبي أحمل صليبي ...

أحلم بفصح الأحلام على باب الصلاة على الموتى ...

وأحلم بالتجدد ...

أمس رمتني الأبواب لاجئاً في الجرح المفتوح في نخر خاصرتها الجنوبية، وهجرتني الأحلام ...

تركتُ هناك وصيتي على باب معبدها الوهمي ...

... المدينة أنثى .. إن تسبى تتكنى باسم قاتلها ...

وإن تُعشق .. تقطّر من دم عشاقها عطر تبرجها ...

و إن تَهجر جور تمنعها .. تحيا باسمها لاجىء ...

أمس لجأتُ إلى الخيمة المجذّرة بالإسمنت والمرارة ..

كي لا يستفيق الوطن ويتبرعم الحنين ...

لا فرق بين لجوء ولجوء حين يصير اللجوء هوية ...

الفرق في خط الهجرة وإمكان الحجيج وراحلة الحنين.

الفصل الثالث

فلك القمر

(23)

في الشهقة ما قبل الأخيرة من عمر الليل المحروق بالشبهات، وحفيف اللون الغائم لرماد الأحلام المجدولة على خيوط السراب، المخمورة في تهدّجٍ الصبح الثقيل على حرقة الأحداق. انتفض شبيهي مرتعشاً، ينزح الملح عن تخوم جسده المرقّن بالنزوات، ويلم الأسماء من نقط العرق البارد ويبخرها أسفارا.

يمد ارتعاشه يداً تداور منحنيات التشكيل السفلي لمنعطف الخطيئة، يعصر توت الخلق المترع بالشبهات وبالألغاز، فيفيض الكون بالشهوات.

يعصب عينيه الغائمتين في سماء الرؤيا، بغشاوة الصبح المتعري في تفاصيل أنوثتها، فيسحبه الدفء رضيعاً يغالب النوم في حضنها الرخيّ، ويغالب الحرف الهارب من لثغة الصوت على جفاف لسانه المعتل من حرمان الفطام، ويمتص الفصاحة من رحيق خصوبتها.

ويمتد الظل على سفح التاريخ، ويغرق الليل في الأسرار، ويتأخر الصبح عن موعد عودته، حتى لا تأكل ديدان القز خيط الحرير المسدل على جرح الوقيعة مع صيحة الشمس الأولى، وتطير فراشاتِ بشارة.

(24)

وأنا انتفضت .. من عريّي، وعري الكون المألوف من حولي، وتهاويت مع هوى يسبح في فراغ مجهول في عتمة ما قبل الصبح، أتشرّب رحيق الشهوة من نشوة النضج المسحور بخيوط الشمس الخفية، وأشد مرونة صوتي من نهنهةٍ حبلى بالفصح الملغّز بالتشكيك، وأفرك عينيّ الحائرتين بشبه دوار مخمور ببهي الضوء المتشظي على غفلة عفتها.

أنزح خدر البديهيات المعتقة في حنجرة السؤال المكتوم عن الهواء، وأبخرها أرواحا.

أبرّج مساحات الوجد الوهمية في تخوم ذاكرتي المسكونة بفراغ الوحدة، وأضفّرها على خيوط تشكلها بتلات.

أداعب منعطف الخطيئة فيها بنية الكشف، فتصير نجوماً، وينفض البدر حمل اكتماله ضجِراً، ويصير هلالا يطالب الرب بحق احتضانها، وأشهد على قران ناقص لنجمة صبح لم تُكمل دورة الفصول ربيع الملامح على حبات عقدها.

أغمضت عيني للحظة، فأعتم الكون .. مسحت غشاوته بحيرة كفي .. فتناثرت شهباً .. غسلتها بالدمع المر صارت حروفا .. ضفّرتها صارت صفات .. خصّلتها صارت أسماء .. وجمعتها فصارت حكايا .. وفردتها فصارت صوراً .. ثم طويتها فصارت نفوساً .. أطّرتها صارت قصائد .. رقّنتها صارت بحوراً .. كثفتها صارت ندىً .. غازلتها تعرت أنثى .. داعبتها صارت خطيئة.

سحب الرب وديعته استحالت لغة .. قرأتها ظلت صامتة .. سألتها صارت حيرة .. لفظتها امتدت ساكنة .. ساكنتها صرنا مدناً.

حررت سكونها صارت غواية .. أزبد البحر بالنشوة وفاض الكون بالشهوات.

أفقت من غرقي مرتعشاً، أنزح الملح عن تخوم جلدي وألمُّ الأسماء من نقط العرق البارد وأبخرها أسفارا.

(25)

أكملت الدوران في متاهة الوجد المخاتل حتى ثلث القوس الثالث في دوامة هذياني.

تعثرتُ بطفح نفسي الناتئ على منعطف الخطيئة، اِلتوتْ قدمي .. ووقعت.

تجاسرت على وهني ونهضت، لكني مشيت أحنفً.

أكملت انزلاقي على ظاهر القناعة المحدّب، أترنح ما بين الحقيقة والوهم، أتظاهر بتوازن موهوم على حقيقة قلقي. سمعت فحيح قهقهة مسمومة بالسخرية تتردد في كل أرجاء الفراغ في رأسي المحموم.

قلت: شيطنة أفعى.

تلمست عقبي فلم أجد رأسها، سمعت صوت حفيفها شبه المكتوم ينسلُّ أمامي، يتلوى كخبث نية، ثم تحول صريراً نزقاً من التشفي.

لا تتظاهر بالتوبة يا ابن أدم، ستعيد الانزلاق على ظاهر عفتك كلما مررت من هنا.

حشتُ كعبي خلف رأسها رغم حنفي، ازداد ترنحي بين اليمين واليسار حتى حدود التلاقي، ولم أجدها.

رفعتُ نظري نحو السماء، عدت إلى لتحديق في نجمة صبحي، فرأيت ذيل خمارها الشفاف ينهي انحلاله في خيوط الشمس الموشاة باحتراق النشوة، ويضخ عصارة الصحو في أوتار جسدي.

نهضت على خدر ساقي، وقفت في فرجة شباكي نصف المفتوح على ريح خريف مصفر، تتلوى في انعطاف عصارة النفط الشفاف، التي غطت جرح الرمل المصقول، يوم تناثر على دوي الصوت مرايا تكمل رحلة الحنين إلى علة البدء في حضن الكثيب.

مسحت غيمة ضباب دامع عن واحة النفط الشفاف، فانقشعت مساحة وهم في اختلاط الشهب الصماء في أبجدية الحروف، وانفصحت ثورة.

لفحت عينيَّ باحتراق عاشق على صليب الجهات في منزلق النبوءة، وحيرة بحار قديم ما زال يستنطق المحار عن سر اللؤلؤ، ويلون الكون بالأرجوان ليكمل عقد حبيبته.

اتكأت بكلتا عينيّ على عاتق البصر، وتماديت باختلاس اللون من عكر الأرجوان، فاختلطت وظائف الحواس. تنفست غبار غضب مكتوم ملأ صدري. زممت شفتيّ على وجعي. خشيت من زفري الحبيس أن يشعل في معترك اللغات حرباً.

انسحبت هادئاً، أطفئ حريق الحروف بنهنهة خرساء، وأبدد الأسماء على هشيم المرايا وجوها.

بحثت عن اسمي فلم أجد صفتي، تفرست في وجه شبيهي فلم أعرفه ... ما أكثر أشباهي.

سألت النجوم عن نواصي القوم، فتشظت زمراً، سألت الله أن يعيد الليل إلى موئل حلمي، فلم يعرفني.

صبأت عن صبا الأحلام القديمة، فتعرى الصوت من علة الحروف في صحائف لغتي.

لبست قدري من وجع التعري، صوفيّاً يسأل عن ثراء في رحلة الحجيج إلى موئل النفط، ويُنكر بغداد في خضم التجلي.

خجلت من عريي، ومن عري الثورات المدججة بالنياشين، ودفنت رأسي في الرمل، فعرفني وجهي، وعرفت اسم شبيهي، وعرفتها من بريق عينيها وموت الصبح المتهدل على سفح نهدها المعروق بالفصاحة .. هندٌ.. وما زالت، عارية تتوضأ بضوء البدر، وتحي ليلة القدر، في حرب الغفران، طوافاً لا شرك فيه، وتسبّح بالرمل كل الأسماء دعاء، أن يصحو أبو سفيان من خدر التين في سكرة الأمس، ويمطّ قامته القصيرة، فيوسّع حمى الدار حتى مقام اللات، كي يأوي آمناً نسل القبيلة.

ألفت المكان، استراحت ثورتي، دفنت وجهي في برزخ الحلم الشفاف بين كثيبين من شهوة الصلصال الرخيم، تماديت في اعتصار النشوة من عرق التوت، وتنفست سموم ريح أعرفها من سفر قديم، بين رحلة الشتاء في تبادل الكوابيس، ورحلة الصيف في أبخرة الأحلام.

تكسرت سموم الريح على عريي، أبر صبار، حرقت جلدي بلسع الحنين وهرش الهذيان .

سحبت حلمي من احتراق الرمل على لهيب النفط، فتشظت نفسي، وسال الرمل مرايا.

طارت نشوتي، وتبخر رحيق التوت غيمة، تشوهت ملامح الوجوه في تصدع الماء، وغامت الرؤيا.

أنا لست ظلي، ولست وجهي.. أنا ظل وجه شبيهي..

هي ليست أنا، هي وجه ظلي، لكنه لا يساويني.

هي لم تتقزم إلى ذاك الحد، وأنا لم أكبر، لكن وجه الشمس تغير.

أنا لست اسمي، وهي لا اسم لها.. هي أسم شبيهي..

ما أكثر أشباهي ...

ما أكثر المتشابهات في ظل شبيهي، ما أصعب اليقين في كثرة الأشباه، وما أصعب الرؤيا في مكر المرايا، وفي تصدع الأحلام، وما أصعب الرؤية من غشاوة النفط الشفاف، أو من خلف احتراق دمعة.

ما أشبه اليوم بظل الأمس، وما أثقل ظله، ما أصعب أن يتشابه العشاق، وتتشابك الأحلام.

ما أصعب أن يصير العشق وراثياً، فتتناسل الأسماء والأهواء، وتتشابه الصفات في ملامح الوجوه، وتلابيب الأحلام. فتتبخر صبوة المتنبئ العربي في إثبات نبوءته بأداة النفي، إن لم يغسل وجهه من ظل أبيه، أو يسهب في الشك في عفة أمه، أوفي إثبات براءتها من دنس الثعبان المسحور بحريق شهوتها.

ويزهق كل أرواح النبوءات المكنونة على باب خصوبتها، ويصلب على صهوة جواده برمح صناعته المسموم بالفردية، علّها تنفصح القصيدة، ويصير في أسفار الوحي الشعري إلهاً، يمسح العماء عن (أبيقور) اللذة المبطن في غفران أبي العلاء المعري، بزنجار عمامته، ويوقد الشهوة الخضراء في أوتار جسده المخدر بالزهد الصوفي، فتعود لكثافة الجحيم المغزول بحرارة الهذيان والعزلة رائحة الشواء.

وتتعرى الحوريات السمر من ظل وجوههن، ومن ستر الأسماء، ويطفن هاديات، في غلالة الوقت الفاصل بين العنف

والنشوة، يوزعن برد السلام على جنباته، ويطفئن حمى الكلمات الملفوحة بلهيب الوعيد، ويمسحن غشاوة الدمع عن بصيرة الخنساء، فتكف عن قافية الرثاء في مأتم القصيدة، وتكف عن دفن الشهداء.

(26)

أمس مروا من هنا..

أمس ابتدأ مشوار الشهادة، ونامت على أحزانها كربلاء.

لا أم للشهيدة ترضعها العويل، ولا أب للشهداء.

لا سيف الحجاج ألحن في خطبة الدفن الجماعي، ولا وجه الحلاج يقهقه على حبل الخلاص، كي تندم بغداد.

لا عذراوات يلوحن بالمناديل، لا راية تسرق الهلال من كوكبة النجوم، فتجمع الجند، أو تجمع خصر راقصة في مقاهي الشرق، ترقص صهيل التغريبة على نحنحة الحنفاء.

لا خليفة على بيت المال، يجبي خمس الغنيمة، أو خمس الهزيمة، ويكف يد السائل عن وطن في سمت الجهات.

ولا سمت للسجود غير بوصلة الشمال.

أمس احترق النفط في فرج بغداد، فتزاحم الخلفاء بصب الماء على رماح ذكورتهم من حرقة البول، وتنفست المخيمات رائحة قيئ فاسد من خطب قومية.

حتى (نيرون) تململ من خدر الفحم، واصطكت عظامه من نقص الزيت، فقهقه متهكماً ..!

إذا اخترقت مدينة أخرى أوزون السماء، ربما يصير النفط قطرة علاج لرمد العين.

أي خبل في التاريخ الحديث ..؟!

أيعقل ألا يجتمع النفط والعسكر إلا على رماد مدينة..!

ملأ (نيرون) تجاويف جمجمته بخدر فحم جديد، وراح يمط عظامه، ويرتب لنفسه موتاً هادئاً.

أجفلني صرير عظامه النزق، وتردد قهقهته الماكرة في رأسي، وأحسست بحرارة الاحتراق في أعلى جبيني .. وفي أماكن أخرى.

سحبت جرحي من عشق الشباك، قطعت رحلة شرودي الطويل، وأوقفت صرير الحفيف النزق بين علامة السجود الزائف في وجهي، وجلباب النفط الشفاف المسدل على جرح قلفته من حرب الخصاء الأخيرة.

مسحت بيدي المرتجفة من برد الوحدة، على حرارة رأسي، نزحت عن جرح الزجاج علقة دم دافئ، فتلطخ وجهي بعكر الأرجوان.

تحيرت في لون المغيب، وفي طعم الاحتراق، أرائحة الفحم المكبرت ببخار الأحلام، تسربت إلى رأسي، أم حريق الصلصال في رائحة الأجساد السمر، قد سرق روحي، من حبل الخلاص لحلاج بغداد، إلى غارب المتنبئ في تخوم الشام ..!

تفرست في أصابعي الخمس، لا لون يجمعها سوى لون المغيب، لا وتر يحركها سوى خدر الأمنيات.

نزعت ظل أبي عني، فتراخت الجهات في صمت ذهولي.

قلت في سري: .. أصلي للقبلة الأولى باحتراق الدمع، ما دامت الأخرى قريبة من موئل النفط المحروق، وإذا احترقت الأحلام على سفوح جبل الشيخ بالثلج البارد، أتنازل عن نار الجحيم الثورية، وأمسح وجهه المتفحم بغابة العليق، لربما تهدأ ثورته، ويعاوده البصر المفقود إذا اشتم رائحة الشبق المتبقي من ظل عباءتها على ذات أنواطٍ، فيعود له وجهه، ويعيد لي اسمي.

(27)

أدرت دفة شباكي الكسير، قوسين عن سمت الحلم النازف، وأرحت مفصله الشرقي من ركام الصدأ.

خلخلت غشاوته الموهومة، بامتداد النظر، فتعرت مساحة ظل من ستر حكايتها، وأضافت لخارطة السجود على مختبر الهذيان في رأسي هلالين خصيبين من الدهشة، ولحظة فرح طفولي تسرت في بياض الحول المقصود في عينيي، بين العماء وقتامة الرؤية.

دهشت من دهشتي، أو من خوفي، أو من فرحي، لا أدري .. لكنني عرفته من حزنه، شبيهي، ومن ندبة السجود على خط الحدود برأسه، وما زال يدميها، وهو يذرع مساحة الظل بين الهلالين، وكلما توقف في محطة عبور، يسدل جفن الحزن على عينيه، ويحف جبينه العريض، بخط الحدود الناتئ في أرسوز على خارطة بلاد الشام المطوية على رأسه، ويردد في صمت الحيرة الحزين، إصحاحاً من السفر القديم ..

(ثروة الغني مدينته الحصينة)

أما الفقير، فحسبه أن يذرع الظل بين الشوق والشقوة على راحلة الحنين، ويدور في حيرة التفاصيل، ويكرر سؤال شبيهه النائم في الحكايا ...

.. ما الذي يمكن أن تكونه رسالة أمة ..؟

كيف لأمة أن تستبيح أعراض النساء والأسماء بغزوة، وتدافع في غزوة أخرى عن حرمة الكلام وأعراض النساء ..؟

(28)

أمس مروا من هنا ..

رسل السلام ورسل الحرب

لا فرق في طرق العبور، ولا فرق في العبر

الفرق في راحلة الطريق، وخوذات الحرس

في تجاعيد البحر على دهشة الوجوه، خوفاً أو حبوراً

وفي حيرة الأحبار في مغارف الكلام وارتجاف الشفاه،

أحنين إلى نشوة ما قبل الفطام، أم مخاض حرف في فصح النبوءات المصلوبة على تخوم الكون ..!

لا فرق في العبور، ولا فرق في العبارة.

الفرق في حيرة الأخبار في صرف الممنوع من الصرف من صفة الأسماء على خطى الأنبياء، لئلا يفيق الحلاج من فرحة موته على حبل الخلاص حزينا.

ويندم المتنبي على تجعد جبينه الغارق في الجدية، إذا طار المُلك، ويعكف على مداعبة شعر حبيبته الأجعد الفاحم، إذا استفاق خدراً من رائحة الفحم المنبعث من حريق النفط على موت حلمه القديم، وارتاح من حرف النفي النافر من إرث أبيه، لئلا يثبت نبوءته، فيعود للجنة طعم انطفاء الشهوة في حضن الحواري، وللجحيم رائحة احتراق النزوة المحفوفة برمل الحرمان وشعلة الغريزة وكوابيس العزلة.

ويخشى حراس الهيكل على يوم الفصح، من فصح جديد يقاسمه الهموم، أو يخالفه طقوس الختان، فها هناك مرسى الأنبياء على تخوم أثينا، فجبل (أرارات)، من شهب الشهباء قريب، وجسد المقدونية السمراء ما زال يعصى على (فيليب) الأعور، ويتلوى في حضن الثعبان المسحور.

يمتص الألوهة من روح (زيوس) العظيم ويخصب أحلام (الإسكندر).

(29)

أمس مروا من هنا ..

من عورة الشبابيك المسبية إلى مدن الأحلام في مدى الحكايا ..

من عقدة الخصاء الوهمي في خدر الذاكرة ..

من حرقة العيون المحرومة من طيف الألوان البارد..

من احتراق الأرواح بشهوة الدم في قرابين الآلهة الصماء، ومن عبث الأمنيات في امتلاك البرج الفاصل بين المغيبين، فلا يخرج المغيبون من أكفان النسيان، فيتناسلون الموت في ذاكرة الأحياء، ويتشاركون الأحلام ويشركون بالثورة.

أمس ابتدأت ثورة النبيين، فأعمرت الأرض بالهجرات وارتحلت، وابتدأ الروح في رحلة إحياء موته في حرب الأدوات، وتآكلت الغزوات وحدود المدن السبايا، وألواح الشرائع وأساطير البطولات.

أمس ابتدأت ثورة المحرومين، من مشرق الأرض المعمور بالقمح والحكايا.

وأكلت نصف مؤونتها زاداً للمحارق، وبخرت الباقي لهاث رجاءٍ على صفحة القطب البارد.

واغترب الغرب أكثر من غربته، وتعسكر العالم شطرين على نواقيس ميلاد الرب، وعلى ثغور الذاكرة المنهوبة فينا، وأهدانا عثة العسكر، وأدوات الحرب، وشهادة ميلادنا.

أمس ولدت ..

من عصا البدوي الممعن في الهجرات ، ومن تعب الطريق.

من خميرة الماء المتسامي في عروق النخل ، ومن شهية الروح.

من رعشة الوجع الطيب في احتكاك جلد العزلتين بأمنية البقاء .. وخلافة الله.

من جفلة الغيمة البتول.. من حفيف غشاوتها بمزن الخطيئة ..

ومن حريق السماء.

من شوق اليبس البارد في رطوبة الليل الكفيف لحرارة الروح.

من شوق الماء المتسري في خاصرة الينابيع وظل الزيتون لأن يصبح مدناً ..

ومن ظل موتك الطويل.

من شيطنة الأحلام الهاربة إلى حضن الأغاني ، ومن السفح الغربي لذاكرة الرحيل.

مما تبقى من شهية في زاد الرحيل إلى موئل الحلم ، وما تبقى من أمل بالعودة .. في الزهد الوهمي في زاد الراحلين.

أمس ولدت وكانت ثورة الثأر تأكل المتبقي من زاد الثورة الأولى ، ونسيج لحمتنا والذكريات.

أمس كبرت وما زالت ثورة الثأر تعقم جرح الهزيمة بالنار والنياشين، وملح الكلمات.

والجرح ينثر قيحه الدامي طفح بثور وثورات.

وصارت المدن موانئ، تودع ثائرين وتستقبل ثورات.

وتعشش الحرب في أسرار البيوت، ومغالبة الأطفال للحرف الهارب من لثغة الصوت كي تنفصح اللغة، وفي مداعبة اللعبة الصماء والأدوات.

في دروس القراءة والتعبير المزينة برسوم البنادق، وفي اللوحات الجدارية وكتب التاريخ المنحول، وعلى ماء الوجوه، كي تخفي خجل الخيبة.

في عتاب العاشق لوجه حبيبته إذا احتار الوقت بموعد وصولها إلى طريق اللقاء، وفي مداعبة النساء.

في موت اللغة على سور الفصل ما بين الصوت والكلمة، وتحاجز الندماء.

في عزلة المفردات عن قواميس اللغة، وعزلة المنفردات عن قانون الأحكام المدنية.

في عزلة المدن عن الأسفار والأخبار ..

في الأسوار النائمة على خاصرة الحدائق، وبين الشجر وغبار الطلع.

في أحلام النائمين وكوابيس اليقظة .. في حلمي المذعور من البرد ... في غبار الريح.. في انتحارها على شباكي المفتوح ... وفي ثورتي عليك.

في تبرم شباكي على ثورة الريح، وعلى ضجري.

في ثورة صبرك المخفية على وسواسي القهري، وعلى دموية لغتي، وعلى صلف عنادي.

(30)

لماذا تركتِ الشباك مفتوحاً ...

حذرتك أن البرد هذيان، وأن الشباك يسرقني، وأني أموت على قارعة الحرب إذا احتدمت الطريق. وإذا انهزم الحرف الثوري من جرح ذاكرتي، يموت الحلم من العزلة.

وإذا انسحب الصبح من يقظة الكوابيس، وجف الحرف على حيرة اللسان، تصير الحرب طقوساً، وتصير الأسفار حكايا، تبلل حيرة الحالم كي يطلق صرخة صحوته، من ملحٍ الدم الممجوج على أوتار صوته، ويدرك أن الرؤيا كانت سراباً، وأن اللسان كان الضحية.

كم قلت لك: إن الحرب أسماء قديمة، والمدن أحلام، والموت خميرة الحزن البشري، والكون لا يغمره الطوفان.

الحزن توق النفس إلى السكينة من صخب الفرح المهذار، وغرق اللغة في صمت التأمل.

كم قلت لك .. إن البحر رحيل في سفن العيون نحو الملح، والرمل لسان.

والاسم يحك الصفة عن جسد المسمى القتيل ويلبسها أكفاناً.

وأني أخاف من اسمي المنحول من صفة الرب، وأخاف من الحرب حين تستبد بأسماء الشوارع، وتنتحر المدن على أحشاء المتاريس، وينتشر الوباء.

كم قلت لك: إن الريح هجرة الرمل المسبيّ من ذاكرة الحدود، وسراب الأحلام المعلقة على تخوم الرؤيا.

نظفي عينيك من حيرة الدمع القديم، ستدركين أن الكون قامته قصيرة. وأن العماليق، بكاء شبابيك على مطر تأخر عن مماحكة زحام الغبار.

ستدركين أنني نخر الموت في خاصرة أحلامك المكلسة في شرنقة الذكريات. وأنك كنت ثغرة الحلم المؤجل في زحام الفتوحات.

(31)

أمس مروا من هنا ..

سبع قبرات عجاف، وسبعة جنود ..

ملؤوا الأفق بالهمهمة الخرساء والملاءات السود ..

حكّوا جلودهم بالهزيع الأخير لليل الفتنة ..

وتواقعوا على حبل من دنسٍ يسحب وشوشة خبيثة،

ولوحَ شرائع ملفوفاً بطوية النفوس، وورق التوت.

ماذا ينبئ الأميّ إن أنبأ بالبيان .. ماذا يقرأ في التلمود..

ماذا يقول لحوريته يوسف، إذا انكشفت ملاءتها عن شبق الجسد المحروق بحنّاء الرغبة ...

وطار قميصه في الأفق الخالي من اللطخة الصفراء،

والتهم العجاف قمح البراري وزاد المحاصيل ..

وبزات الجنود ...

ماذا يقول لذريته يعقوب .. إذا احترق سفر الرؤيا ..

وامتد البحر على سفر الخروج ..

وتواقع الأخوة على لوح الشريعة بالسر، وانسحق التوت.

ماذا يقول لربه لوط .. إن أعاد حسابه بالميزان ..

وعلى أي شباك اعتراف ستبكي مريم ..

إذا انسحب المهديُّ من شرنقة مهده فراشة حرير، تغزل ياقات النيافة باللون العدمي ..

وامتد الزيتون إلى سفح الجبل الأقرع .. وهجع الحمام.

ماذا تقول زرقاء اليمامة إذا اكتحلت بنور الهداية في شهقة الليل الأخيرة .. وامتد الضياء صوب البصيرة وأوتار السراب.

ماذا تقول خيمة مزقها رصاص المتصارعين على قصر الخلافة .. في وضح النهار.

وماذا تقول خيمة مزقها الحنين إلى عناق الرمل في عتمة الليل .. وفارقها الرجاء.

ماذا يقول البيان الأخير لمعركة السلام ..

إذا احترق النفط .. وفاض النيل على رمل الخليج ..

واتحد الفرات مع البحر على نخل العراق ..

وتاه المحاربون في حرب الشوارع والمتاريس ..

وتناسلت الخيام بغاء.

ماذا تقول خديجة لابنتها البكر .. إن تدلى نهدها الممعن في الإغراء، من خرقة ثوبها المسترسل في إغواء الإعاشة.

ماذا يقول المهلهل إذا جف دم القصيدة على ثرثرة الزق المهذار، وتقوست رماح الثأر من ثقل الانتظار.

ماذا يقول الياسمين إذا اعترته نفحة خجل من عشق السور البليد .. وسحب شرايينه من مسامات ركنه، وتعرّش على جسد الحقيقة ..

ماذا يقول كتاب الله في سفر الأحزاب ..

وماذا تقول الأحزاب الثورية، إذا تزور لون الدم ..

وصار الثوريون جرادا.

وأكلنا المحل في حروب الردة، وتمزقت أحلامنا على حراب الجنود.

وتمزقت الخيام طوائف في حروب الولاء والمغانم ..

وطارت الخوذات كوابيس في سماء الحلم المذعور ..

وجف الحلم على لسان الحالم ...

وتطايرت الكلمات في الكون الخلاء ..

صرخات خرساء.

ستقول كل الأشداق التي ما زال لديها شهية للكلام،

خسرنا الحرب لأن الله قد غلبنا، وخاننا الشهداء ..

خاننا الشهداء ... خاننا الشهداء.

(32)

أمس مروا من هنا ..

نعش .. ودمعتها .. وأنا ..

يمسحان ظلي عن ضجر الطريق ..

ويشيعان الرحيل.

يغسلان الرمق الحاسر في النفَس الأخير، بدهشة الظل المذعور، وحبر الكتاب النافل على صك الغفران ..

وتعب الرب من التوبة.

وحدها في غمرة الصمت المهيب ..

تحك الكلمات عن بياض الكفن المقصور بالرهبة ..

فيصير علما.

تبدد الأفكار المطرزة على حواف الشهادة فتصير موتا.

تفرك الدمع بملح النبوءات المسفوحة على الجسد القتيل ...

وتحرق الألم الصامت بالأسئلة.

تكشف عن ندوب الأحداث المسجاة في حفر السياط المقتولة على قروح جلده ..

وعن وحشة المكان الهارب من امتداد ظله، وتوسع الحدقة.

تحرث الصبح المتهدل على تعب الجفون المحفوفة بالعزلة والانتظار ..

وتغسل الليل الغافل في حرقة العيون برحيق الشمس

وتنشره حكايا.

تخالف وصية الرب بألا يُقهر الموت بالإحياء ..

وأمر السلطان بأن يتم الدفن بدون مراسم.

تخالف شريعة الموت المجهول الهوية، وتكشف عن جرح الحقيقة النازف في الجسد القتيل.

تطلق صرخة تخترق جدار الصوت، فتصبح كلمة.

يرتعد السور الرقيب، وتصير خوذات الجنود نواقيس.

وتتسابق العصي المفزوعة، تدق الحرب على طبول الأذان المأخوذة بالصرخة.

وينسلّ الكلام فحيحاً مسموماً بالوعيد، ويصير الدم ثورة، تدفن في السر من أعطى لصوته حق الغناء الحر في حديقة السلطان، وخالف النغم المطنب في الولاء .. ومن ترنم.

يعتم الدمع الشفاف في حرقة عينيها المكتحلتين بجرح الأرض، وينكمش المكان في برودة أعصابها، وينسحب الزمان. ويصرخ النعش ضجراً، وينسحب وحيداً، يبحث عن نخر يكفكف ظله.

وأنا .. كان سيصرخ، لكن وتر الصوت الوحيد ترنح مخنوقاً بغصة الدمع المر. فيبتلع الصرخة والمرارة، ويسحب ظله من تحت ركام الأحداث وينسحب ...

يمسح وجه الأرض بتيه قدميه، ويغسل وجه المدينة بالشتائم والأسئلة.

من قال أن الثورة غير الحرب، وأن الحرب غير الموت، وأن الموت غير هوىً مؤجل في النفس، لا يساورها إلا إذا جف عرق الحياة.

من قال أن الكهولة أسرع في ارتداء قميص الخلاص من دم الشباب.

من قال أن الموت حق، كي لا نبكي موتنا، أو نبكي موتانا.

من أعطى المدن الحق في دمنا، فنموت لها، ونموت فيها، ولا تموت فينا، ومن سلبنا حق الرثاء؟

من أنا ..؟

أيها العابث بنصف تاريخنا المحكي، وبسبعة أسباع الممنوع من الكتابة.

أيها المتزحلق على ظاهر الحرف المدغم في سرد الحكاية، والهارب من نصف اللغة المضمر في النوايا.

الضمائر أسماء، أيها الهارب من اسمك المنسول من نسل النبوءات التي أطلقت كل الأسماء، والتهمت الكون، وتجشأت أسماءنا من تخمة الدم و إيماءة النكران، وتناهبتها المحافل في أروقة الثورات، سبايا يزنى فيها.

من أنا .. غير حرف التنبيه الساكن بعد المد، بعمق الصرخة البكر على منعطف الولادة وتاريخ الرجاء.

من أنا .. غير الحرف المضمر في إعجاز الكتاب المتعب في ترتيب الآي، والمثقل بالإفصاح، والمضجر بالحكايا.

من أنا .. غير الحرف النافر في وجع المواويل المحروقة بحزن البيات، وموت الذكريات الحبيسة على عتبات البيوت المسكونة بالانتظار والتمائم.

من أنا .. غير زفرة الصمت المتليّف على حبال الصوت المدلاة إلى غرق الصدى.

من أنت ..؟

أيتها المشفوعة بقميص الطود الثالث من أركان الرشد...

وبيت المال.

أيتها المسفوحة في مآرب الطغاة وأحذية العسكر ..

أيتها المشنوقة على رايات الفداء ، وثورات الجباية.

من أي هجرة أنت ..؟ ومن أي صدى ..؟ من أي خيمة أنت ..؟ وعلى أي هوى ..؟

وأي حبل وصال يمتد إليك ..؟ وأي حبل ثوري عقد سرتك على وتد الوصاية.

من أي فرِع على شجرة النبوءات المجهولة التاريخ ومكان الإقامة ، فُصلتِ عُقلاً ، تتجذر في دمنا ..؟ وتمتص رحيق الحياة من جذوة قلوبنا.

وتحتار اللغة المحكية في نحت اسم لنا ..

فتسمينا شهداء.

أمس ابتدأ مشوار الشهادة ، ونامت على أحزانها كربلاء.

(33)

أمس ابتدأت ثورة في الأرض المشاع، مجهولة التاريخ، وفصل الإنسان حبل سرته عن أمه الأولى، حتى يصبح الروح كلمة.

وما انقطع الحنين.

وامتد العراء إلى جسد الكون الواخز بالحيرة، وانتصب الجسد الآدميُ كي يشعر الإنسان بالكبرياء وجرح الكرامة.

وامتدت يده المرتعشة تداعب سرة الكون، فانتفض الحرمان، وصار الزمان تاريخاً، وصار التاريخ حرباً على الكون، وصارت الحرب حرباً على الحرب، وتقاطر الموت على سير الوجود، وفاض الكون بالنبوءات.

أمس ولدت ولم أثبت نبوءتي ...

أمس مت ولم يثأر أحد لموتي، فقلت ابتدأت نبوءتي .. وعندما أفقت من موتي، أدركت أني كنت أحلم.

أمس زارني طيفه الوثني في غمرة أحلامي ..

أمس وفي كل ليلة من عمر ذاكرتي المسبية للأمس، يزورني طيفه منزوع الصفات، لكني أعرفه .. شبيهي النائم في الحكايا، أعرفه من سبابته التي ما زالت تخلخل هواء القبول بإيماءة النكران، وقوس معصمه المرسومة بثلاثة أركان السؤال، وما زالت تفتّق جوف الصحف القديمة، علها تخبر كم روحاً يحتاج

الحالم كي يبني مجده .. وكم جسداً يحتاج الحلم الكبير كي يصبح نبوءة ..

وإلى كم دم تحتاج آلهة البشر الصماء كي تشبع شهوتها ..

إلى كم ريح يحتاج البارود كي يكمل احتراقه في الجيف البشرية.. وينشر في الكون المحموم بشهوة القتل رائحة الزكام، ويفسد خمس الغنيمة.

إلى كم هزيمة يحتاج الشرف العسكري كي ينزع النيشان الموشى بالذهب الزائف .. ويفرج عن تاريخ المدينة.

كم شمساً يحتاج الغارق في كوابيس الليل كي يدرك أن الجحيم حرب مجهولة الأسباب .. وأن الفردوس غنيمة.

كم موتاً يحتاج المملوك حتى يدرك أن الثورة حرب تأكل مماليكها، وروح الدولة وأسوار المدينة ..

إلى كم علم يحتاج "العالم" كي يعلم، أن الشهادة موت وأن الله لا يسكن قرب الضغينة ..؟

وأن شهيده في عرف الخصم قتيل هوى مُستَبَّد بعقله الممسوس، كما شهيد الخصم في عرفه قتيل.

وأن حرية الروح لا تبدأ بموته، وثورة الإحياء لا تحي من كان قتيلا.

وأن ثورة الحياة هي تدرج الله في استكمال محاسن خلقه على سبعٍ طوالٍ، حتى يرتقي الجمال إلى كمال جماله، لأن الله في عرفٍ كلً المحبين جميل.

وتدرج البشر في التآنس بعد وحشة، والتجمع بعد عزلة، والتواضع على حق الحياة، وتحريم الدم في مطلق أحواله دون استثناء، لأن حق الله في الإنسان هو روحه الثاوية فيه، وعيشه معه، وخلافته له في الأرض، وأن قرابين الدم البشري على مذبح الرب أديان وثنية.

وأن ثياب النساء ليست من وحي الله ..

وأن وليمة التفاح ذاكرة بشرية.

(34)

أمس فتحت شباكاً على برزخ الفرح السري في حزن ذاكرتي، فوجدت طيفك .. يسبح في الظل الشفيف على ضفة روحي، ويسقي بسرسقة العذوبة شتول الرغبة.

سرحت أسرّح بجموح صهيلي سطح الليل النائم في غمرة أحلامي الشهية، وألاعب نهنهة الأفق الداني لحواس اللمس في مقل اشتهائي، سنابل قمح، لونها المغيب الهارب من حلم الشمس عن غنج جفول، بمزاج الرب في الخلق.

أطلقت عبثي يتسكع في أفلاج الليل مناورة، فامتلأ وهمي قناعة بأن الليل أجعد ..

وحينما سألت أصابعي عن سر قناعتي، وجدت يدي تداعب شعرك.

سُبطٌ أسيلٌ وليس بذي جعد أبداً، لكنه عري الريح من جلدها الفضفاض .. أيقظ هسهسة السين في ملامح وجهي الحزين تحت انثياله البهي، فخلت أنه أجعد.

تصابيت وروحي صبت، تسرّح الريح من صبوة أحلامي القديمة، وتبثها صبا.

وتغزل من سنا الغيم اللعوب لهاتيك النجمة الزهراء إكليل الهوى.

وتوشّح الصبح النائم تحت خمارها الشفاف، بفوضى الفصول، وأراجيح الغوى.

تسرح حنين المواويل من حزن الأغاني، وفوضى الحواس من خمر الهدى.

وأصحو من صحوتي البتراء قمراً، أربكه الضياء، وحفيف الروح بالروح، فتنكر لصوتك الحييّ في بحة الكلام، وتسربل بالصدى.

وأسدل جفنيي على مرأى العيون مرتعشاً، أحلّ الليل بظلك اللطيف وأنكر فعلتي ... وأرسم الكون بظلي الكثيف، وأنزح عن جلدي الخلاسي إناث الندى.

وأحرق بلهيب احتراقي جنتك الخضراء، وملامح وجهك، وأبدد حضورك الشهي، حَوارٍ تحار من حيرة الحائرين بوصفها، ومن حيرتي، وكيف ألوّن بحضورها الرخيّ حواري جنتي.

وتفيض من فيضك الينابيع جداول عذبة، يستقي من عذبها الزيتون ويورف ظله، وتساكن جذر التين، فينضح خمره خدراً، وأسكر على قسم الرب بطور سنين، وأستقي من منهليك تفاح الشفاء من جفوتي .. وأجفو .. وأشكو من علة الجفاف .. وأستقي .. وكلما اشتد الجفاف بمأربي، أشعلتُ من علتي حرباً، ولعنت شيطان حضورك الخفي في وهم نبوءتي ..

وعدت شقياً تقيا تقيا.

يوم عرفتك .. لم أقل إنك أجمل الجميلات، قلت فقط أحبك .. ولم أسأل لماذا. و اليوم ما زلت أحبك .. ولا أسأل لماذا.

أخاف لو سألت عن سر محبتي أن أشعل حرباً، أو تنتحر الحروب .. ويمشي الإله حافياً على الأرض.

كم قلت لك إن الحرب أسماء قديمة، والبرد هذيان، وإن الريح توقظ مهماز البوح في خاصرة الحفيظة ..

وتفتّق أغشية الأسرار المخبوءة في بوتقة الرغبة وكوة الأحلام. وإن الأحلام مطايا الرغبات المحبوسة في أقبية النوايا. إذا انفصحت على أفاريز الشبابيك، وتنفست هواء الوجود الحر، يتمدد الكون نحوها ويحل السلام.

الفصل الرابع

واحة ظل القمر

(35)

خرج من خاصرة الظل الفتيّ مزهواً بزيه العسكري على صهوة قمره النحاسي، مستعرضاً جهة الريح وباب القلعة الموشى بالأحابيل، وشارات النصر الممهورة بسيف (الصقلبي) الناتح سِفاحاً، من عروق الكُتاميّ الناكل عن عقد وصايته.

يمسح ما علق من ظل أبيه الغائب على وجهه، وعلى الخرز الحجري في وجه المكان.

يطوف بناظريه المحدبين في أروقة الكلام وبخار الفحيح المنسلّ من وشوشة الأسرار المخبوءة في حجب التقية.

وكلما مدّ بريق عينيه صوب البدر السابح في متاهات النجوم، أجفل حصانه النحاسيّ من ظله.

فيُهدّأ جموح خصوبته بحرف وجهه عن دائرة الضوء، وتلسعه عدوى الجفول، كأن خلية نحل قد بثت أبر سمومها في منبت أعضائه المجذومة، كلما رأى ظل حصانه واستعصى عليه ظله. وأدرك أن الثعبان القادم من أرض السحر إلى جيب عباءتها، قد أكمل إشعال الشهوة في تفاصيل أنوثتها، وألقى جلده ثقباً أسوداً يمتص حلمه الفتيّ، وذاكرة الأمس الحزين وظله. فيترك دائرة الضوء ورطوبة الليل تغسل رائحة القصر المسكون بآفة السلطان، وتقلبات ولاء الجند، ويعود للهيام في بحر الليل النائم على أسوار مدينته، ويدرك أنه مغيب.

لم يكن الظل المستعصي على عين الحالم في برد الليل الصحراوي، خيال الأيوبي، صلاح الدين، المبعد بعد الفتح من حرم المدينة القدسي، ليستوطن في أحلام اللاجئين.

ولم يكن طيف الأرسوزي، المهجَر من أرسوز على جناح الذكريات وراحلة الحنين، والمغيب من أحلام الثوريين القومية.

ولم يكن طيف المتنبئ العربي، أبو الطيب، يحثّ حصانه بحثاً عن ثأر أبيه المنسي في بلاط الحمداني، ولا وريث لدولته.

ولم يكن خيال (الإسكندر) المقدوني، يدير جموحه نحو الشرق الزاخر بالنبوءات، فيسبق ظله، وظل عورتها المستعصية على (فيليب) الأعور، ويهرب من وشوشة حكومات الظل الخفيّة في مدن أكلتها الحروب، وتسَيس فيها العسكر.

لا لم يكن (الإسكندر).

كان شبيهه المستتر في جبة (الزوزني) العالم بالعلمين من إرث جده الهارب من فلك الشمس إلى فلك القمر، ومن فلك النيرين إلى صحف التكوين، ومن بيت الرب إلى الخندق.

أمس اضطربت روحه من قلق يثيره همس دنس، فظن أن (الصقلبي) يعيد حبك حكايته. وحين تعرى الصوت من حفيف الهمس، وانكشف جلد الولاء الخلاسي من تحت عباءته، أدرك أن رسالة أخرى تكمل حجة الغياب، قد أودعت في مكمن الأسرار في باطن جبته، وأحس بتثنّي جسدها الشبق تحت نبوءته، يعلن نسل الإله من عرق خصوبتها.

أدار وجه حصانه عن سمت الضوء الخافت، لكنه لم يجفل. عاوده الغرق في ثقوب الحلم السوداء وراح يكمل طواف الليل على تخوم الرطوبة بين الرمل والزرع بلا ذاكرة، يمتصّ من عتمة الليل ورطوبة الماء روحاً يكفي لنهار جديد، يحرق في مشاغل الصبح الوهمية ذاكرة الأمس الحزين.

منذ ثلاث من عُقد التثليث المنزوعة من عمر الأهلّة، ومن حبو العمر المتراخي على شرفة الأمل الممتدة في مدى الأحلام .. أدمنه الليل، وأدمن الطواف على حدود الليل المتسكع في أفلاج القصب المتحدّر من خمر النيل المنساب في حضن الحواري، منهوك المفيض، ونشوان بعصير السكر.

يهش بقدميه الخارجتين عن حدود الركاب أجنحة الظل الخفي عن نسغ الروح المتفحم في عُقد القصب، المتحدر من شغف (أخناتون) الإله بحوريته القادمة من أرض السحر بطقس زفاف سري، تخمّر الشمس بعبير التفاح الفاضح على سفوح نهديها الخارجين عن طقوس الأقمار النيلية، لتربك طقوس العبادة.

يعتصر رحيق الشبق المتبقي من خدر الشمس في نسغ الأوتار الممتدة في عمر الأرض، ويتلذذ بطعم الحنين الفضي، لقمر يتنسّك في أعتاب الليل المتبخّر من فحم النسغ المحروق، ويتلمظ مرارة فمه ويعود حزينا.

وفي كل صباح يجلس وحيداً، متوسداً يسار العرش، يداعب جوهرة الملك في خاتمه المنزلق حول أصبعه الطري. يقلّب بعض أوراق صفراء من تاريخ الخلافة .. وأسرار الحكم .. وصفات الله .. وديوان الجند الجاثم فوق صدره .. بضجر صبي ممنوع من اللهو، ثم يتركها، ويعود لحك إربه الخجول بيده غير القابضة على العرش وبخيال أنوثتها، فتجفله رائحة نهدها المألوفة لديه، ورائحة أخرى، ويهم للصلاة مستغفراً عن خطيئته، وعن خطيئتها.

ثم يعود إلى قرار الأمس بحرق بقلة الأنثى، ومنع صناع البُهرج الأنثويّ من تدبيج أغطية الكعبين حتى لا تبرح الفتنة عتبات البيوت، أو يقصر مطال انتشارها إذا خرجت حافية.

لم يعد إلى قرار الأمس لأنه صار بلا ذاكرة، فصار إلهاً عاوده الغضب على حواء المغوية بجلد الثعبان، وحَمْلِ أدم خطيئتها، بل .. لأنه كان يرى في بريق عينيها الزائغتين كل أجساد النساء عارية.

ولم يعد عن قرار الأمس لأن الإله يقبل التوبة، بل .. لأنه اشتمّ من عرق خصوبتها رائحة إله قادم.

وأيقن أن الأمام الثاوي في جبة (الزوزني) مغيب.

وأن حضور الغائب يبدأ من فلسفة العد في صحف العدديّين الإماميّين، ومن فلسفة الموت في صحف الأميين، وإلا سيصير وجه الله مشاعة قرمطية.

وأيقن أن غياب الله يعني حضور الخليفة.

يومها خرج كعادته في استنشاق الروح من رطوبة الرمل على حواف الماء، لكن وجهه كان معتماً وملامحه قاسية. سار بلا رفق ولا هدف، وأرخى عنان النحاسي بلا غاية. توسّم وجه القمر الفتيّ .. فلم يؤنسه، رأى قوسه قوس حرب تاه سهمها، أو رأس نصل هو مقبضها، ومع ذلك فقد لعن الحرب.

أمس هزم جيشين ونصف جيشه وكسب الحرب، وسحق ثورتين وكل الانقلابين وقادة جنده وكسب العرش. لكنه يعجز عن رد غواية ومنافحة فكرة، فأحب الحرب، ومع ذلك فقد

لعن الحرب، وأجاب عن حيرة سؤاله .. من لم يكن حاضراً في حضرة السؤال لا يُسأل عن حجة الغياب.

يومها ظل يطوف على تخوم الماء بين الرمل والزرع واجماً وحزينا، ورمى خاتم ملكه على حواف الملك في بئر موسى مردداً: عد إلى ربك ... وحده الوارث من إرث أبيه يحتاج إلى شهادة مُلْك، أمّا الوارث من جلد الثعبان الخلاسي وإرث أمه، فحسبه الغياب أو دفن كل الشهود.

أكمل طوافه العبثي في خاصرة مدينته الغارقة في ظل البدر المجذوم، ورائحة الرطوبة في الليل الصحراوي المنشّى برياح الشرق، لكنه لم يعد، ولم يوصِ وصيّاً على العرش، لئلا يعتزل الخلق الإله إذا أسفَّ الخليفة.

ولم يوصّ (الإسكندر) على الإسكندرية، حتى لا تهدأ الحروب، فيبقى هو الأكبر.

ونام ملء جفونه (شهريار) ولم يعترض على الحكاية، ما دامت (شهرازاد) قد نسيت، أن البلية قد عُقرت على قبر الأمام في عاصمة الخلافه، وفاض النيل على رمل الحكاية.

(36)

أمس مروا من هنا ..

من غفلة العاشق الممسوس من غيبة ظله ..

ومن ظل الهواء.

من برزخ الأرواح المتزاحمة على أبواب التجدد ...

ومن قميص العراء.

من ظل الوقت الفاصل بين الجرح والندبة ...

ومن جسد الماء.

من حفيظة الأسرار المخبوءة في متون الحكايا ...

ومن ظاهر الإنشاء.

من ثورة الإماء على أَيمان الخليفة .. ومن حلول الرطوبة في هيولى الأشياء.

من إسراء البدر إلى فلك الشمس في براءة الليل الكتوم .. ومن معراج السماء.

من عورة شباكي الهارب من الشرق نحو الشرق.

من حلمي الطافح بالخيبة.

من تاريخ ميلادي الهارب من اختلاف التقاويم.

ومن شوق المدن المزروعة بالأحلام إلى أحلامها ..

ومن شوق الأحلام إلى الزمان.

من شغف الأحياء بتفاصيل الموتى ...

ومن شغف الأموات بتلابيب الأحياء ...

من عنت الحياة على فلسفة الموت .. ومن غضب (عناة).

من عُنة الحرب على جسد المدن الجميلة ..

وخوف المحاربين من آلهة الخوف.

من عُنة "الثورات"على جسد الذاكرة وتفاصيل الحكايا.

من تيه "الثوريين "بفلك القمر .. فذات هلال بدأت حرب، وذات هلال نامت حرب.

(37)

ذات حرب سأل الخائف من ظله الخفي شبيهه المنزوع الصفات .. لماذا الحرب.؟

فعاوده وجع الحكاك في قلفته الملتهبة من حرارة الحفيف بثوب سبيته المتخيل، وأودع سؤاله في مكمن أحلامه وأشعل حربا.

وذات حرب سأل المملوك مليكه: أيها "المنتصر"..

لماذا الحرب ..؟

فأمر الجند بمسح ذاكرته، وإغلاق مسامات جلده بالسياط، ودفنه في قبو مظلم حتى لا تنتشر العدوى. وتمتم في سره بمزيج من الحنق والتهكم " لماذا الحرب أيها الخائن" .. أي ملك يتحمل تبعات السلام ويبقى ملكاً.

وأردف: فلتُحرق زوجته أيضاً.

هذا العاشق عرف الحب وتشرب رائحة السؤال ورحيق الحرية، وعرف أكثر مما ينبغي أن يعرف .. وليُرسل أبناؤه إلى التعليم الإلزامي في ميتم الثورة.

ولتنشر كل الصحف الرسمية صور الأسرى المجذومين في سجون العدو، لئلا تخمد مشاعر الحقد في نفوس الأطر

الشعبية، فتستفيق الأسئلة على معنى الجهاد وقوانين الأحكام المدنية.

وذات صلاة رفع العابد يديه بالدعاء .. أيا ربُّ .. حسِّن عيشنا قبل موتنا، واعفنا من غوائل الحرب، وأزل العداوة من قلوبنا، واحفظ دمنا. فأصابته من الخلف طعنة جهادية، ولم يغضب الرب ولا أعترض الحاكم.

وذات وجدٍ سأل الصوفي جبته المنسوجة من ذات الله .. لماذا الحرب ..؟

فتثنّى الصوف المغزول بالتسبيح، وأثار في بطانة جلده دغدغة لم يبلها حك ولا هرش، وراح يدور حول نفسه هاذياً .. يردد بصوت شبه مكتوم: لأن غنيك لم يُغنِ فقيركَ .. حتى ظن أن قرمطيا قد تلبسه، فخلع رداءه حتى بات عارياً، وعندما هدأت روحه وصحا من هذيانه، نظر إلى جسده فلم يجده عورة، ولا جسد الأخر غنيمة.

ذات حيرة سأل الحكيم المتخم بسنن الوعّاظ وأمثال سليمان ولاءات الروافض، رفيقه الجنون: أيها المعفى من التكليف والتوليف .. لماذا الحرب؟

فارتسمت أمارة استهزاء رصين في ملامح تشعثه الخارج عن مألوف الرتابة، وابتسم.

ونفرت من عينيه الغائرتين في دائرة البلاهة أجنّة دمع رخيّ تغتسل ببريق بعيد، وتكمل تكورها العفيف بمهارة على جفنيه الترابيين، تمتص ملح الأرض المعتق في وجنتيه الشاحبتين وتستريح من رائحة العدم.

ارتبك السائل من حفيف سؤاله الوردي اللزج ببخار أحلامه الخفية، وانكفأ يكظم اندفاعه المتهور بمزاح أنبأ بفساد المتعة في التندر، وعاد للغرق في صمت التفكّر المشوب بالحذر.

لم يتح رفيقه الجنون مجالاً للسكينة أكبر، وعاجله بجواب أشدّ وقعاً على قبة مخيلته مما كان يتوقع.

لأنك مازلت محارباً ولم تنتصر.

وأعرف سؤالك الذي كنت ستسألنه وأحجمت ..

لا، إذا انتصر المحارب لا تنتهي الحرب، حسبه أن يرشف نشوة النصر المؤقت ويبدأ حربا.

أنت ما زلت تربّي المحاربين على فلسفة العدم وأمثال سليمان المسبوقة بلاءات النهي، والمشفوعة بوعيد الحرب ومهارات التأديب.

لا تنتهي الحروب بانتهاء جولاتها، بل بانتهاء المحاربين، أو انتفاء أسبابها من سلسلة الأسباب ودائرة العلل.

ثم هل تخليت عن معبدك المزخرف بالشموع وأشباح الليل ورائحة القرابين وظلي؟ أو هل تخليت عن مساحة ظلك في الأرض ..؟ فأتعبك الجهاد فلعنت الحرب، وأعلنت علي الحرب ..؟

_ ولكن يا رفيقي في كل ما يزيد على حدود المتعة، أنا لست جندياً و لم أكن داعية حرب.

أنا داعية سلام وبشير محبة أقعدته الحروب وأرهقت روحه الحيرة وأحلام الخلق، فأنستُ برفقتك القصيرة فلماذا تبادرني بالشكوك ولا تريحك رفقتي.؟

_ أيها البشير النذير، أنت لم تُخلص لرفقتي بعد.

ما زلت جهاديا وجهادك ما زال أصغر. ترفض الحرب ولا ترفض أسبابها، وعقلك سيد في مملكته، لكنك ربما تنسى أن مملكة الضرورة هي مملكة العبودية، ولذلك لم تصبح رفيقي المخلص بعد.

أنا مملكتي هي مملكة الحرية، وساحاتها الأحلام، وبين مُلكينا الكثير من التوتر والقليل من الرفقة وحسن الجوار. وعندما سألتني ابتسمت وبكيت.

ابتسمت لأضفي المتعة على تندرك، وبكيت كي لا تجتاح محبتي حدود توجسك، وبكيت من وحشتي ومن وحشيتك! أوليس من حسن الجيرة أيها الجهادي المعتدّ بأعدل قسمة للرب، أن تسأل عقلك الرتيب في عرس اكتماله لماذا الحرب، وتتركني منتشياً بحرية هذياني ..؟

أوليس في ذيول الكثير من أسئلة الآخرين رايات للحرب ..؟

اتكأ الحكيم على كتف الجنون برفق وبكى: قدر السؤال أن يأتي متأخراً كي تبكي شارته في آخر العبارة.

لكن بكاءها في هذا المقام لا يضمر الحرب.

وذات شوق سألت عاشقة وجه حبيبها المغيب في رحاب الرب .. لماذا الحرب؟

فرد صوته المفعم بالحزن: لكي تتغذى الآلهة الصم من دمنا الطازج وبخور الجنائز ..

ـ ولكن .. يا حبيب الله، أنت شهيد وتقول هذا ..!

ـ لست بعدُ حبيبَ الله، ولا كنت يوماً حبيباً لأحد. أنا شهيد بعرف بعض الخلق بما ورثوا من إرث الحرب، وما زلت روحاً ضعيفاً بعرف الله.

ـ لكنّي أحببتك .. وتغنت بموتك القصائد والخطب.

ـ مثلي أنت، ما زلت روحاً ضعيفاً لا يعرف الحب ولا الحرية. أنت لم تحبيني، أحببت وجودي، وأنا أحببت وجودك وطمعت بغيرك وطمعت بثواب الله.

ولم يتغنَّ أحد بموتي.. بل استعبدوني مرتين، وأحلوا دمي مرتين، مرة كي أموت ومرة كي أميت غيري بدمي.

وتناهبوا الأوصاف من معاجم اللغة العرجاء وتغنوا بموتي، لأن ثقافة الموت لم تسعفهم للتغني بالحياة.

ـ ولكن .. يا فقيدي أنت أربكت روحي مرتين، يوم لم تعرف كيف تحبني فانتحرتُ لأجلك، ويوم لم أعرف كيف أحبك فانتحرتَ لغيري.

ـ لستُ فقيدك ولم أكن موجودك، ولستُ بعد روح الله. ولستِ فقيدتي ولم تكوني موجودتي ولستِ روح الله.

كنت .. فقيدك يوم كنت تنتظرين رجوعي بعد كل غياب، أما وقد مت، فحسبك أن تتركي النسيان يأكل ما تبقى لي من وجود.

ـ مهلك .. مهلك أيها الحيُّ .. فأنت لست أنت ..! أنت تتكلم كصوفي، أو فيلسوف ولم تكن كذلك ..! فمن أين تستشف الكلام ..؟ فقد عرفتك عابداً ينير بيوت الله ويطفئ بيته، ويعلي مقام الأولياء ويبخس مقامه، ويصلي خلف الإمام، ويكفّر الفلاسفة والصوفيين والشعراء، وينام في أثناء الخطبة والدعاء باسم الخليفة، ويقتصر الجدال.

فمن أنت؟! ومن أين تمتح كل هذا القول وتجدّ في الجدال؟

ـ يا حليلتي في الجسد وعاصيتي في الروح، أو يا حليلتي في الروح وعاصيتي في الجسد، من المؤكد أني لست أنا من يتكلم، فأنا ميت، والأموات لا يتكلمون.

ومن قال أن الشهيد حي، كان يواسي حزنك المؤقت علي، ويحثّك على بذر المزيد من الشهداء.

من يتكلم هي أنت .. الحية أولاً والحية آخراً، لكن جلدك تبدل. أو ربما هو صوت التهافت بداخلك من وحي الغزالي، ولكن بعد أن تصوف وترك فريضة (الجهاد).

ثم لماذا تنبشين ماضينا وتُقلقلين موتي، أنا لم أعد أتجسس على أحلامك منذ كنت حديث العهد في الموت، فلماذا طلبتني ولوثت طهارة دمي بالأسئلة؟!

ـ أنا لم أطلبك .. وحيدة أنا في يومي وفي حلمي فاشتقت، وما زالت الحرب تطرق بابي، وتمتد أظافرها إلى أسرار بيتي،

والخوف يحرق إيماني، والموتى يغادرون زمرا، وما زالت العداوة تحرق كل أنواع الثمر .. فسألتك لماذا الحرب ؟ ها هي تأكل كل مؤونتنا وذكرياتنا، حتى أسرار خلوتنا الصغيرة، فكيف أوقفها ..؟

ـ الشوق طلب، يا مساوية لي في الموت، والطلب غاية أسّها الحلم وأساسها السؤال، لكن السؤال يأتي دائماً متأخراً.

المرأة لا توقف حرباً، حسبها أن تشعلها.

أمس .. كان دوي زغاريدك يحثّ نزيف أذنيَ في مأتم زفافي لحورية غيرك، فلم أسمع صوت الله إن كان يناديني، ومت أطرش .. وما زلت تُحمّلين ابننا الفتي صورة دمي.

ألم تشعري بالغيرة يومها؟ أم إن تلك المجهولة لم تثر العداوة في فورة دمك.

كم حرباً كنت ستشعلين، لو كنت قد أخبرتك عن كل مجهولة كانت تزور شهوتي في برودة دمك؟

وماذا كنت ستفعلين لو صارحتك الآن، أن ثلث غايات الحروب مجهولة، وثلثها الآخر في انتصاب قامتك بوجه الله النادم، والثلث الأخير في شهوة جسدك.

بل ماذا ستفعلين لو أخبرتك أن ثلث الثلث المجهول من أسباب الحروب هو أنت، حين تخليت عن سر الإلوهة فيك. والثلث

الآخر هو أنا، حين تنكرت لسر الإلوهة فيك، واستبدلت الله المحبة بالله الحق. والثلث الأخير هو وحشة الله في جنته الخاوية، لا زفراتنا تؤنس وحدته ولا فيءٌ لشجر الظل، ولا ظل لشجر التوت.

بل ماذا ستفعلين لو صارحتك الآن، أني أفضَل خسارة الحرب على خسارة الحياة.

ـ ولكن، يا شهيد الله .. ماذا أفعل بتركتك من النياشين، وماذا أفعل بإرثك العظيم، وصورة زفافك الأخير على صدر ابنك.

ـ اغسليها بالنفط والقار واحرقيها، أو ارميها من أقرب شباك في الرمل، وأخرجيها من حناجر الأطفال ومن شهيق تنفسهم، حتى لا تقتل جيلاً آخر بزنجار نحاسها.

قد رمينا ميراث الله ووديعته ولم يعزّ علينا، أيعزّ عليك ميراث الحرب وهو ميراث بشر.

ما كان لنا من مجد إذا صحّ التأويل كان لغيرنا مثله، فما كان قابلاً منه للحياة، أنتش فيهم، وما فسد منه لم يموتوا عبثاً ليحيوه.

لا يستطع العاقل أن يفخر بمجدٍ "فضيلته" القتل الحلال عندما يكون هو القاتل، ويتنكر لمجدٍ "فضيلته" القتل عندما يصبح موضوعاً للقتل.

أجل ارمِي كل النياشين، ارميها .. لا تترددي، فما أفسده الموت لا يحيا، فبعد أن عرفت الموت في الميتة الثانية لم تعد ثقافة الموت تعنيني.

أجفلني صوت ارتطام ميراثه على فرجة شباكي المفتوح على سمت الجهات، وراعني كم كان ثقيلاً، حتى أن مفصل شباكي الشرقي ما زال أحنف، ويستعصي على الإطباق، والشظية الصغيرة التي أصابت موقع قياس الهذيان في مقدم رأسي، قد تركت ندبة سوداء يظنها البعض علامة السجود في وجهي الشهيد، فمرة تزف إليّ رفقة عابرة، ومرة تزجني في حرب مجهولة الأسباب.

أخرجت رأسي المدموغ بخاتم الذبح الحلال من حفيظة التخفي الوهمي، وتجاوزت خط الهدنة القديم بيني وبين الهواء الحر متوجساً، فأدهشني أن الكون قد صار أوسع من حدود الخيال.

تماديت في اعتصار الأفق البعيد بحسر عينيّ حتى حدود الرؤيا، وكاد لولا حفيف الموت بتفاصيل بصماتي أن يسكنني الإله. وكدت أنسى ذاكرتي في جبة (الزوزني) يقمّصها إلهاً لو لم أفق على صوت عويلها الحانق، ترجم جبته المحنطة بالنفط، وتُقذّع برائحة الموت كل الأوسمة.

وتدوي بصوتها الباكي .. كنت أعرف منذ البدء أنك ميت يا ابن الله وكنت أكابر، اليوم تقول لي أنك ميت، ماذا أفعل بشيبي بعد هذا العمر؟

يا شهيد الله .. ماذا؟

قلت من واجب الجيرة أن أواسيها، لكني خجلت، خجلت مما تبقى من أنوثتها، وخجلت لأن كل ما تعلمته من كلام المواساة أصغر من حجم مصيبة.

تجاسرت وسألتها .. يا شريكتي في الحزن، ماذا .. ولماذا ..؟

فأرعد صوتها شاتماً من غير إفصاح.

لماذا ..!

أنت أيضاً سؤالك يأتي متأخراً، لماذا لم تسأله قبل موته ولماذا تموت ولا تسأل نفسك لماذا؟! أيحتاج الحب لألف سؤال يبرره ولا يحتاج الموت أن يُسأل لماذا ..؟!

ازداد خجلي المتجاسر خجلاً من وقع سؤالها ومن رؤية نصف صدرها العاري، واهتزت تفاصيل أركاني.
قررت أن أغلق شباكي، لكني طمعت برشفة أخرى من رحيق الكون علّها تعيد نشوتي، فرأيت كل الشبابيك المفتوحة على المدى، ترمي محنطاتها الصفراء وهشيم النياشين المحروقة بالهواء، وتصيح لماذا .. لماذا ..؟؟

أفقت من نومي الثقيل، حككت علامة السجود برأسي، استجمعت كل ذاكرة الأمس الثورية وكل ثقافات الموت التي تعلمتها، وصور كل المحطات القتيلة من عمر شبابي وعمر شبابها وعمر شباكي.

اتكأت على إفريز شباكي الوهمي، ويممت شطر الشرق الزاخر بالنبوَّات .. فهويت .. هويت طويلاً، فعرفت الله وعرفت الحب، وعرفت الحرب، وعرفت الموت وكل أشكال النبوءات وتفاصيل النساء.

وفي هنّة العمر القصيرة التي عبرتُ بها بين اللاوعي والموت، وسمعت فيها دويّ ارتطامي، عرفت كم كانت عمارة وهمي عالية.

وحينما أيقظني بريق عينيك من موتي الطويل وغسلت حرارة دمعك الهميِّ برودة هذياني، لم أجد غير ملامح وجهك المحبّ أحملها أسباب الحروب، وأسألها لائماً لماذا .. تركت الشباك مفتوحاً .. فتعيد احتضاني.

وحينما غلبتُ خوفي .. ونظرت في عينيك المشعتين بنور الله، عرفت الحب .. وتجاسرت على سؤال نفسي لماذا ..؟ ولماذا ..؟ ولماذا الحرب ..؟ وما زلت أسألها ....

... حتى وجدتني أكتب رواية ...

دمشق في 14\2\2009

الفهرس

4- واحة ظل القمر الصفحة (105)